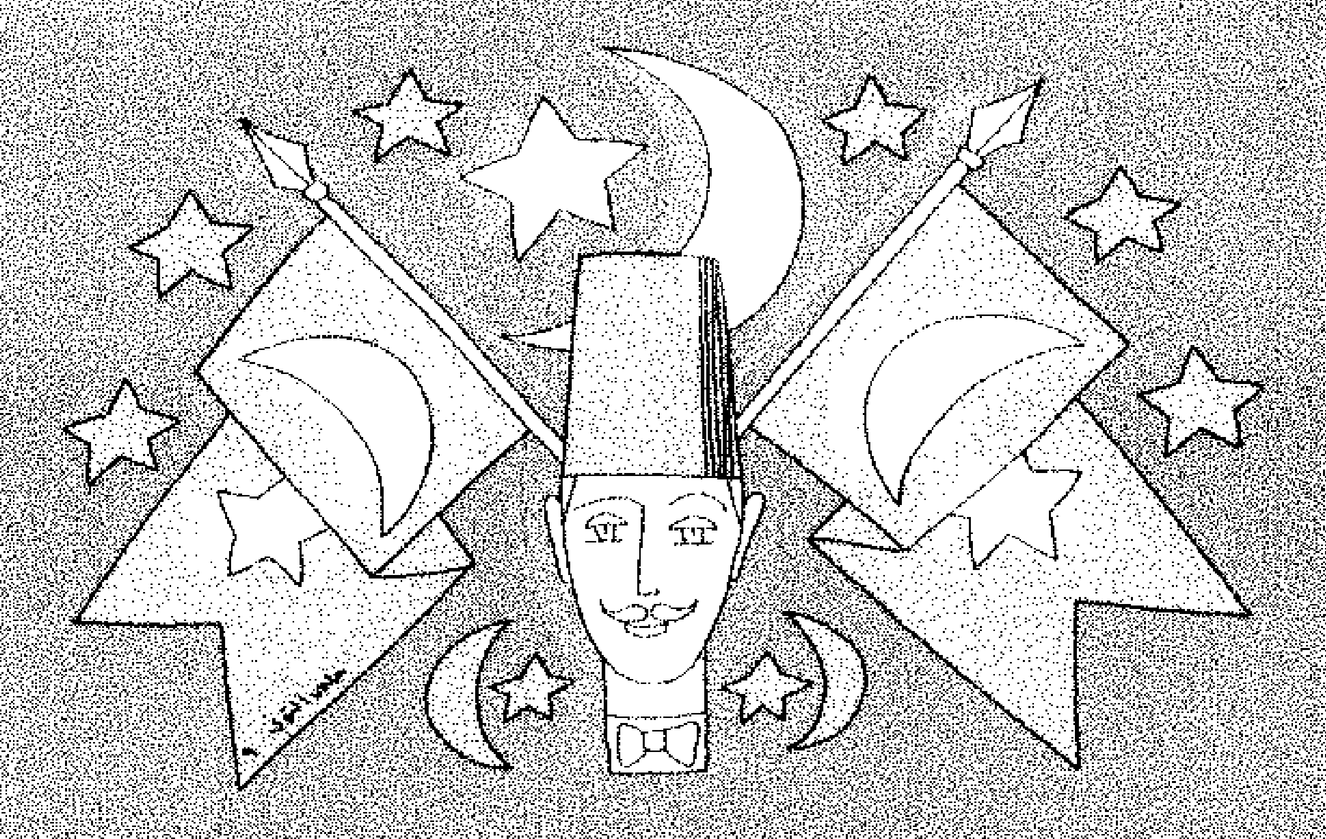


الجامعة الإسلامية والفكرة القومية

نموذج مصطفى كامل

د. محمد عمارة

الجامعة الإسلامية والفكرة القوميّة

نموذج مصطفى كامل

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م

© دار الشروق

بيروت : [illegible]
ص.ب : ٨٠٦٤ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175
LE - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥
٨٦٧٥٥٥ - ٢٠٧٩٨٤

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ت : ٣٩٣٤٣٣٣ / ٣٩٣٤٥٧٨
برقياً : شروق - تلكس : ٩٣٠٩١ SHROK UN - ٣٩٣٤٨١٤
٨ شارع سيبويه المصري - مدينة نصر - ت : ٤٠٢٣٣٩٩
٤٠٣٣٥٤٨ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧

الجامعة الإسلامية والفكرة القوميّة

نموذج مصطفى كامل

د. محمد عمارة

دار الشروق

الإهداء

في الذكرى المئوية لميلاد مصطفى كامل: الابن البار للوطنية المصرية.. والمناضل - من منطلق قومي - تحت رايات الجامعة الإسلامية، بأكثر مفاهيمها إنسانية وتقدماً.. نقدم هذه الصفحات، ونهديها إلى:

* كل الذين يؤمنون بأن استقلال مصر وتقدمها، واستقلال العرب ووحدتهم، ونهضة الشرق وتطوره، إنما ترتكز إلى قوة روابط التضامن والنضال بين مصر وما حولها من دوائر: عربية، وإفريقية، وإسلامية..

* وإلى الذين يناضلون ضد محاولات عزل مصر عن هذه الدوائر، فيحولون بين مخططات الاستعمار وأحلام الإمبريالية وبين التحقيق والنجاح..

فلقد كان وعي مصطفى كامل بروابط مصر التاريخية والحضارية والنضالية مع جيرانها هو الذي قاده للنضال تحت رايات الجامعة الإسلامية.. من منطلق قومي ولغايات وطنية... وهو الأمر الذي نخصص له هذه الصفحات..

مقدمة

دائماً وأبداً، وعبر كل عصور التاريخ كان الصراع بين مصر وأعدائها، في جانب أساسي من جوانبه، يدور حول الحدود التي إليها يمتد التأثير المصري في الرقعة الجغرافية المحيطة بها..

ففي العصور القديمة كانت فترات ازدهار مصر وقوتها تنبع دائماً من امتداد تأثيرها الحضاري والسياسي والإداري خارج حدودها وتأثرها أيضاً بجيرانها، ومن تلك الروابط التي تُربطها بالرقعة الممتدة وراء حدودها الشرقية بالذات..

وعندما كان الاضمحلال والضعف والذبول يدرك قوى مصر وحيويتها، فتعود لتقبع خلف حدودها الجغرافية، يجد أعداؤها الفرصة المناسبة للانقضاض عليها، أملاً في إطفاء الشعلة التي تمثل مركز القيادة والتأثير في هذه الرقعة من العالم على مر العصور وتعدد الحضارات.

وبعد الفتح العربي لمصر، وعندما اكتملت لمصر قسماتها العربية، لغة وحضارة، في القرن العاشر الميلادي، وأصبحت مركزاً للخلافة الفاطمية، وعاصمة لامبراطورية عربية تمتد عبر حدودها الغربية والشرقية.. عند ذلك أصبحت القوة المؤثرة والرادعة لأطماع الغرب الاستعماري وعدوان قراصنته في البحر

الأبيض المتوسط. . كما أصبحت القوة القابضة على طرق التجارة الدولية ومفاتيحها.

وعندما انكمشت تأثيراتها وانسحبت أعلامها إلى داخل حدودها، باضمحلال النظام الفاطمي وزحف الشيخوخة على عناصر قوته، أصبحت تحت رحمة الدويلات الصليبية التي كانت قد قامت في الشام وفلسطين. . فتعرضت للغزو أكثر من مرة، وفرضت عليها الإتاوات، بل وأصبح للصليبيين حامية تقف على مشارف القاهرة وتمسك بمفاتيح بواباتها؟!. .

وعندما جددت الدولة الأيوبية شباب مصر عاد تأثيرها الشاب كي يعبر حدودها من جديد، وأصبح لقاؤها مع المشرق العربي واتحادها به الصخرة التي تحطمت عليها أحلام الصليبيين، ثم استمرت هذه الصخرة قائمة حتى العصر المملوكي فتحطم عليها الوجود الصليبي كلية، وكذلك مغامرات الزحف التتري الشهير. .

وفي العصر الحديث كان عبور التأثير المصري لحدودها الجغرافية هو طوق النجاة للمنطقة العربية ـ كما وعاه محمد علي ـ من أطماع الاستعمار الغربي التي بدأ بحملة بونابرت سنة ١٧٩٨م. . ومن هنا كان الإصرار الاستعماري على هزيمة محمد علي، وسحب الجيش المصري من الشام في بداية العقد الخامس من القرن الماضي، وكانت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠، التي أراد الاستعمار أن يعيد بها مصر كي تقبع داخل حدودها، فتنقطع روابطها بالمنطقة العربية، حتى تذبل في قوقعتها، فيسهل عليه ازدرادها، والقضاء على مركز طاقة القيادة

والمقاومة في هذا الجزء الحساس والهام من العالم.

وعندما أخذت عناصر القوة في مصر تناضل لمواصلة سيرها ونموها بعد الخمول الذي أصابها على عهد الخديو عباس باشا الأول (١٨٤٩ ـ ١٨٥٤م)، وكان ذلك، خاصة، في عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م) بدأت محاولتها التاريخية لمد تأثيرها وربط خيوطها مع من وراء حدودها من شعوب المنطقة ودولها. . فكانت تنمية علاقاتها بالسودان، وأحلامها في وحدة إفريقية على غرار وحدة الولايات الأمريكية، كما عبر عن ذلك رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م)، وكانت سيطرتها على شواطىء البحر الأحمر الغربية ـ «سواكن» و«مصوع»، وملحقاتهما ـ والشرقية ـ «زيلع» و«الحديدة» وملحقاتهما ـ وذلك تعويضاً عن الروابط العضوية مع الشام وفلسطين، التي كان العثمانيون يحولون دون قيامها وعقدها، خوفاً من تكرار تجربتهم مع محمد علي في سنوات (١٨٣١ ـ ١٨٤١م).

وعندما احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢م كانت عينهم على هذه الحقيقة التي مثلت مصدر القوة لمصر والشرق العربي عبر تاريخه الطويل. . فأجبروا مصر على الانسحاب إلى داخل حدودها، وذلك بسلخ السودان فعلياً من نطاق تأثيرها، وباستعمارهم له عملياً بعد اتفاقية السودان في يناير سنة ١٨٩٩م. وبإجبارهم لها على ترك الحكم والإدارة للمناطق التي ألحقت بحدودها على شاطىء البحر الأحمر في الجنوب، وهي المناطق التي ألحقتها بمصر الفرمانات الصادرة من

السلطان عبد العزيز خان إلى الخديو إسماعيل في سنة ١٨٧٣م وسنة ١٨٧٥م.

كان هذا هو موقف الاستعمار، وأعداء مصر، تاريخياً: العمل بكل السبل والوسائل لحصر التأثير المصري داخل حدودها الجغرافية، حتى يذبل هذا التأثير وتدركه عوامل الفناء.. وقطع الروابط بين مصر وبين جاراتها، كي يسهل ازدراد أولئك الجارات واحدة بعد واحدة، وبعد ذلك لا يصعب على الحلق الاستعماري ازدراد الكيان المصري والتخلص من مخاطره المحدقة بأطماع الغزاة والمستعمرين.

ومن هنا كان تشجيع الاستعمار الانجليزي، منذ أن احتل مصر، لذلك التيار الذي أخذ ينمو في صفوف الحركة الوطنية، تيار المعتدلين الذين كان شعارهم: مصر فقط.. والذين رفضوا ربط مصر بالدائرة العربية، لأنهم كانوا يؤمنون بالقومية المصرية فقط، كما رفضوا ربط مصر بالدائرة الإسلامية، عن طريق مناصبة شعار الجامعة الإسلامية وأنصاره العداء..

لقد كان هذا التيار الذي تمثل في (حزب الأمة) ثم (الأحرار الدستوريين) يلقى التشجيع من الاستعمار الانجليزي، في هذه القضية بالذات.. وكانت هذه القضية هي رسالة الفئات والدوائر التي أسفرت عن وجهها في نصرتها لسلطة الاحتلال.. مثل تيار (المقطم) وكل الذين وضعوا أنفسهم في خدمة المستعمر الجديد..

كانوا يريدون ـ بصرف النظر عن النيات والمنطلقات ـ أن يجعلوا من القومية المصرية ـ وهي حقيقة موضوعية ـ البديل

والغناء عن أية ارتباطات أخرى بأية دائرة سياسية أو قومية خارج الحدود المصرية، وتوهموا ـ أو توهم البعض ـ أن في عزلة مصر عناصر قوتها. . وكان الاستعمار يدرك ـ ويدرك معه بعض دعاة هذا التيار ـ إن في هذه العزلة بداية النهاية للقوة والطاقة اللتين جعلتا هذا الوطن يستعصي، تاريخياً، على الخضوع لمحاولات المخضوع والطامعين. .

* * *

وعندما بدأ مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م) في إيقاظ الحس الوطني المصري كي يقاوم الاحتلال الانجليزي في العقد الأخير من القرن الماضي، لم يكن شعار القومية العربية مطروحاً في مصر، ولم تكن العروبة، كدائرة سياسية تلي الدائرة المصرية الوطنية، قد تبلورت معالمها بعد. . فهذه القومية العربية، ودائرتها السياسية لم تتبلور حقيقة إلا على يد المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م) عندما أصدر كتابه (أم القرى) في بداية القرن العشرين. . كما أن شعار العروبة والذاتية العربية كان يغضب يومئذ العثمانيين، وكانوا ـ بعد القوة الوطنية المصرية الذاتية ـ القوة الأولى المناوئة لاحتلال الانجليز لمصر. .

ومن ثم. . فلقد كان شعار الجامعة الإسلامية، كدائرة سياسية تضامنية تجمع الشعوب الإسلامية المستعمرة أو المهددة بالاستعمار، كان هذا الشعار وتلك الدائرة هما التعبير، بالنسبة للحركة الوطنية المصرية، عن طوق النجاة من العزلة التي يعمل الاستعمار كي يقضي بها على مصر، وكان المناضلون تحت

أعلام الجامعة الإسلامية، وبالذات من منطلق الوطنية المصرية وفي سبيل الاستقلال التام لمصر - كما كان الحال عند مصطفى كامل - كانوا هم المدركين بوعي تاريخي أصيل الطريق الطبيعي لقوة مصر ونهضتها والسبيل الأوحد لخلاصها من نير الاستعمار . .

من هذه الزاوية يجب أن ننظر لشعار الجامعة الإسلامية، على عهد مصطفى كامل، وإلى موقف القوى الوطنية وغير الوطنية بمصر من هذا الشعار . . أي الشعارين كان يمنح مصر القوة في نضالها ضد الاستعمار : الانكفاء على الذات تحت شعار القومية المصرية؟؟ أم الربط السياسي والأدبي وإقامة التضامن بين الأمة المصرية ودائرة الشعوب الإسلامية، التي تضم العرب بين جنباتها؟؟ . .

ومن هذه الزاوية، بالتالي، يجب أن ننظر لمفهوم مصطفى كامل عن الجامعة الإسلامية، ورفعه لشعاراتها، ونضاله تحت أعلامها . .

وهو الأمر الذي نرجو أن نكون قد وفقنا لدراسته فيما نقدم هنا من صفحات . . والله ولي التوفيق.

القاهرة - أكتوبر سنة ١٩٧٤.

دكتور محمد عمارة

بطاقة حياة . .

[إنني أجد حياتي في هذه العقيدة الوطنية. وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة . .

إنني لا أترك لحظة تمر من حياتي دون أن أغرس حب مصرنا العزيزة في قلوب مواطني . .

إن روحي تتغذى من حب الوطن، وبغيره لا أستطيع الحياة . . وما دامت هذه الشعلة الوطنية تغذيني وتؤازرني فإنني لا أهاب شيئاً ولا أحداً في الوجود].

مصطفى كامل

هذه الصفحات ليست ترجمة لحياة الزعيم الفذ مصطفى كامل، وإنما هي محاولة لتكثيف أحداث هذه الحياة وتركيزها في عدد من النقاط والحلقات التي تسلم إحداها إلى الأخرى، بحيث تعطي في النهاية سطور «بطاقة حياة» لتلك الشخصية التي كان وجودها وفكرها ونضالها نقطة تحول في حياة «الوطنية المصرية»، واستجابة واعية وتلقائية، في ذات الوقت، لروح المقاومة الكامنة في أحشاء هذه الأمة ضد غزاتها والطامعين فيها على مر العصور..

وسطور هذه «البطاقة» وصفحاتها تتتبع حياة هذا الزعيم الوطني والقومي لتركز أحداثها الهامة، وتطوراتها ذات الدلالة، وإنجازاتها في ميدان بعث هذه الأمة كي تبحث عن حقها المقدس في الحرية، وتناضل لتحرير ترابها الوطني من عار الاحتلال.

أما صفحات هذه البطاقة فإنها ثلاث:

١ ـ **النشأة والطفولة**... حتى سن السادسة من عمره.. (١٨٧٤ ـ ١٨٧٩م).

٢ ـ **التلمذة وطلب العلم**... حتى سن العشرين.. (١٨٨٠ ـ ١٨٩٤م).

٣ ـ الجهاد الوطني والقومي. . . حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى في ريعان الشباب. . (١٨٩٤ ـ ١٩٠٨).

«١»

* في حي من الأحياء الوطنية بمدينة القاهرة، هو حي «الصليبة»، بقسم «الخليفة»، ولد مصطفى كامل في ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤م (الموافق أول رجب سنة ١٢٩١هـ). . لأسرة مصرية متوسطة الحال، مادياً وأدبياً. .

فوالده علي «أفندي» محمد ـ كان ضابطاً مهندساً بالجيش المصري، جاء إلى القاهرة، بحكم عمله ووظيفته، من قرية «كتامة» إحدى قرى مركز طنطا، عاصمة الغربية. . وكان والده ـ جد مصطفى كامل ـ أحد تجار تلك القرية. .

أما والدته ـ والدة مصطفى ـ فهي السيدة «حفيظة» كريمة «اليوزباشي» محمد «أفندي» فهمي. من شارع الكومي، بجهة المحجر، بالقاهرة.

* ولقد ولد لهذه الأسرة ـ التي وصلت إلى طبقة «الأفندية» بمجتمع القاهرة يومئذ ـ غير مصطفى، إخوته: علي فهمي، وعائشة، وحسن حسني، ونفيسة.

* وفي سن مبكرة من طفولته أحضر له والده أحد حفاظ القرآن الكريم ـ (فقيه) ـ كي يشرف على تعليمه، بالمنزل، مبادىء القراءة والكتابة، ويلقنه حفظ آيات من القرآن الكريم.

«٢»

* بعد أن أتم السادسة من عمره - (١٨٨٠م) - أدخله والده «مدرسة أم عباس» - والدة عباس الأول - بحي «الصليبة». . ولكنه رغب في تركها بعد سنتين احتجاجاً على إهانة أحد المدرسين له، فألحقه والده «بمدرسة السيدة زينب» الابتدائية. .

وفي سنة ١٨٨٦م (٢٣ جمادى الثاني سنة ١٣٠٣هـ) توفي والده، فانتقلت كفالته إلى عمه حسين واصف (باشا)، كما انتقل مع والدته وإخوته إلى منزل جده لأمه، ومن ثم انتقل من «مدرسة السيدة زينب» إلى «مدرسة القربية» القريبة من منزل جده لأمه. . ومن هذه المدرسة حصل على شهادة الابتدائية سنة ١٨٨٧م.

* وفي نفس العام(سنة ١٨٨٧) - التحق بالتعليم الثانوي - (التجهيزي) - فدخل «المدرسة الخديوية». . وفي هذه المرحلة من تعليمه بدأ يلفت الأنظار إلى نبوغه المبكر، وخاصة إلى ملكات الخطابة والفصاحة وتوقد الذهن والشخصية القيادية وحب مصر حباً غير مألوف فيمن هم في مثل سنه الصغير. .

وفي إحدى زيارات ناظر - (وزير) - المعارف علي باشا مبارك للمدرسة لفت انتباه الوزير إليه، فأعجب ببلاغته وقدراته الخطابية، فتنبأ له بمستقبل متميز، وقال له عبارته الشهيرة: «أنت امرؤ القيس»؟!

* وفي سنة ١٨٩٠م - وهو في السادسة عشرة من عمره - فكر في إنشاء تنظيم وطني أدبي يعمل في سبيل رفعة مصر

وتحريرها، وتحدث إلى أخيه علي فهمي في خطاب مؤرخ في ١٢ يوليو سنة ١٨٩٠م عن اعتزامه إنشاء (جمعية إحياء الوطن)؟!..

ثم أسس في نفس العام (جمعية الصليبة الأدبية) التي ضمت سبعين عضواً من تلامذة المدرسة الخديوية في الأشهر الثلاثة الأولى من تأسيسها.. وأخذت هذه الجمعية تمارس نشاطها «الأدبي - الوطني»، كما أخذ مصطفى كامل يمارس نشاطه الخطابي فيها مساء كل يوم جمعة، وكان موضوع خطبته الأولى فيها عن (فضل الجمعيات في العالم)، ودور التنظيمات في نهضات الأمم والشعوب!.

وإلى جانب نشاطه في (جمعية الصليبة الأدبية) اشترك في النشاط الأدبي الذي كانت تقوم به (جمعية الاعتدال)، وكانت تعقد اجتماعاتها المنتظمة في «مدرسة الأمريكان».

* وفي الثامنة عشرة من عمره - (سنة ١٨٩٢م) - وكان لا يزال بالمدرسة الخديوية التجهيزية - (الثانوية) - تعرف بصاحب جريدة «الأهرام» بشارة باشا تقلا - وكانت الأهرام تصدر وقتذاك بالاسكندرية - وكان تعرف مصطفى كامل ببشارة باشا تقلا بواسطة صديقه شاعر القطرين خليل بك مطران.. وبدأ في هذه السن المبكرة ينشر مقالاته بالأهرام. كما أخذ ينشر المقالات في «المؤيد»، صحيفة الشيخ علي يوسف منذ سنة ١٨٩٢م.

* وفي الثامنة عشرة من عمره - (سنة ١٨٩٢م) - نال الثانوية - (البكالوريا) - ودخل مدرسة الحقوق الخديوية - (كلية الحقوق) - في أكتوبر من نفس العام. وكانت رغبته في دراسة

الحقوق نابعة من رغبته في التفرغ لقضية الوطن الكبرى، «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة، ومعرفة حقوق الأفراد والأمم»، كما وصفها في خطابه إلى أخيه علي فهمي.

* وفي أكتوبر سنة ١٨٩٢م انتقل إلى السنة الثانية بمدرسة الحقوق الخديوية، والتحق كذلك بمدرسة الحقوق الفرنسية، كي يستفيد من ميزاتها في المنهج وارتفاع المستوى في اللغة الفرنسية، وجمع بين الدراسة والتحصيل للمدرستين معاً.

* وفي سنة ١٨٩٢م زار الخديو عباس الثاني ـ وكان حديث عهد بتولي عرش الخديوية ـ مدرسة الحقوق، فشارك مصطفى كامل في حفل استقباله بأن أنشد قصيدة شعر من نظمه حياه بها وتحدث فيها عن أمل الوطن في الخديو الجديد..

* وفي يناير سنة ١٨٩٣م حدثت أزمة بين الخديو الشاب واللورد كرومر [١٨٤١ ـ ١٩١٧م] المعتمد البريطاني بمصر، عندما أراد الخديو التخلص من حكومة مصطفى فهمي باشا، التي كانت أداة طيعة في يد سلطات الاحتلال، فاعترض كرومر وهدد الخديو وأنذره.. فانخرطت مدرسة الحقوق في تظاهرة وطنية تؤيد الخديو ضد سلطات الاحتلال، وكان مصطفى كامل في طليعة المتظاهرين..

* وفي التاسعة عشرة من عمره ـ أوائل سنة ١٨٩٣م ـ أخرج باكورة إنتاجه، عندما ألف رسالة عنوانها (أعجب ما كان في الرق عند الرومان)؟!

* وفي ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣م ـ (أول شعبان سنة ١٣١٠

هـ) ـ أصدر أول مجلة يصدرها طالب مصري، إذ صدر العدد الأول من مجلته (المدرسة) واتخذ لها شعاراً يربط بين الحب للمدرسة والأسرة والوطن ـ (**حبك مدرستك: حبك أهلك ووطنك**)؟! . . ولقد استقبلت مجلة (المدرسة) استقبالاً طيباً، حتى لقد رحب بصدورها الزعيم الوطني عبد الله نديم في مجلته (الأستاذ) بعدد ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٣م.

* في يوم الجمعة ٢٣ يونيو سنة ١٨٩٣م غادر مصر إلى باريس كي يؤدي امتحان السنة الأولى بمدرسة الحقوق الفرنسية، وهناك أخذ يتعرف على الحياة العامة لفرنسا، وبالذات جوانبها السياسية والأدبية الجادة، ومن باريس كتب إلى أخيه، علي فهمي رسالة يقول فيها: «لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين ويونانيين ويابانيين، فرأيتهم جميعاً منكبين على العلم، **ولكنني أؤكد لك أن المصري أقواهم عارضة وأعلاهم ذكاء، ولا ينقصه إلا الإرادة التي هي أس النجاح! . .**».

وبعد أن أدى امتحانه بنجاح عاد إلى مصر في أغسطس سنة ١٨٩٣م.

* وكان بين زملاء مصطفى كامل في مدرسة الحقوق صديقه «فؤاد سليم»، وكان والده «لطيف باشا سليم» أحد الذين شاركوا في الثورة العرابية، ولقد عمل على تكوين هيئة تضم صفوف المعارضة للاحتلال في سنة ١٨٩٣م، فانضم مصطفى كامل إلى هيئة المعارضة هذه. وكان يومئذ في التاسعة عشرة من عمره . .

* وفي نفس العام ـ (سنة ١٨٩٣م) ـ أخرج في مدرسة

الحقوق رواية (فتح الأندلس) التي حملت دروساً في الوطنية، وتذكيراً بمجد العرب وبطولاتهم وعشقهم للحرية والفداء، واستطاع أن يتخذ من التراث التاريخي سبيلاً لبث الأفكار الوطنية والأخلاقيات النظيفة التي أراد بثها في الطلاب والمشاهدين..

* وفي صيف سنة ١٨٩٤م سافر إلى باريس، للمرة الثانية، حيث أدى امتحان السنة الثانية بمدرسة الحقوق الفرنسية، وبعد زيارة باريس زار بروكسل، ومن هناك كتب ست مقالات نشرت بجريدة «الأهرام».. ثم عاد إلى مصر في سبتمبر من نفس العام..

* وفي أكتوبر من نفس العام ـ (سنة ١٨٩٤م) ـ عاد ثالثة إلى باريس، وكان قد اعتزم تأدية امتحان السنة الثالثة بمدرسة الحقوق الفرنسية، كي يحصل على شهادتها «الليسانس» في نفس العام الذي أدى فيه امتحان السنة الثانية.. ولما اعترضت كلية باريس على أدائه امتحانين في عام واحد، توسط له بعض أساتذته، تقديراً منهم لنبوغه وتميزه، فأدى امتحان «الليسانس» في كلية حقوق «تولوز» حيث حصل على شهادة «الليسانس» في نوفمبر سنة ١٨٩٤م، وسنه يومئذ عشرون عاماً..

* وفي إحدى الصحف الفرنسية التي تصدر في «تولوز» ـ (جازيت دي تولوز) ـ نشر حديثاً وطنياً أجراه معه محرر الصحيفة..

ثم عاد إلى وطنه، مصر في ديسمبر سنة ١٨٩٤م.

«٣»

* منذ اللحظة الأولى التي عاد فيها مصطفى كامل إلى مصر، بعد حصوله على «الليسانس» تفرغ للمحاماة، لأنه كان قد قرر منذ وقت مبكر ألا ينخرط في سلك الوظائف الحكومية.. وفي المحاماة كانت لديه قضية واحدة هي قضية مصر وحريتها واستقلالها، فلم يحدث أن ترافع في قضية فردية واحدة..

وفي ٤ فبراير سنة ١٨٩٥م كتب عن آماله في المستقبل إلى أحد أصدقائه يقول: **«إن لي آمالاً تخالج فؤادي ليلاً ونهاراً، أعتقد أنها إن تحققت أنقذت الوطن من الخطر، وأعادته إلى منشئه الأول وأحسن، وسوف تعلمون كنه هذه الآمال»؟!**

وفي مصر أخذ يدرس أصول القضية الوطنية، وتاريخ الصراع بين مصر وبين الاستعمار عامة، والاستعمار الانجليزي على وجه الخصوص، ومواقف الدول الأوروبية من المسألة الشرقية، وقضية الاحتلال الانجليزي لمصر بالذات.. وكان قد أحضر معه من باريس صندوقين مملوءين بالكتب المؤلفة في المسألة المصرية وسياسة الأمم، وفيها مجموعة من مذكرات كبار الساسة الأوروبيين.. أحضر بعضها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية..

* وكان أول ما نشره «بالأهرام» بعد عودته من باريس الحديث الذي أجراه، على الباخرة التي عادت به إلى مصر، مع شقيق اللورد كرومر «الكولونيل بارنيج»، الذي تساءل عن

إمكانية حصول مصر على الاستقلال وهي لا نصير لها في السعي إلى الاستقلال؟!.. وفي هذا الحديث رد مصطفى كامل على تساؤل «الكولونيل بارنج» قائلاً: إن «لنا أوروبا بأسرها، التي تناديها صوالحها العديدة بأن تنصرنا بنصرة هذه الصوالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تقويض أركانها. على أنها إن لم تنصرنا **فإن لنا من حقنا واتحادنا، بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة، ما نبلغ بهما إلى ما نصبو من حرية واستقلال!»**.

* وبعد العودة إلى مصر، والاستقرار بها، انتقل مصطفى كامل بعائلته إلى مسكن جديد بعمارة خليل آغا خلف قسم المنشية.

* وكانت حوادث الهجوم على جنود وضباط جيش الاحتلال الانجليزي بمصر، قد أخذت تزداد حتى صارت ظاهرة ملحوظة، فأنشأ كرومر «المحكمة المخصوصة» كي تحاكم، بالقوانين الاستثنائية، المصريين الذين يعتدون على جنود الاحتلال.. فنشر مصطفى كامل في «الأهرام» هجوماً على إنشاء هذه المحكمة الاستثنائية ضمنه مقالاً عنوانه (صواعق الاحتلال) في ٤ مارس سنة ١٨٩٥م.

* وكان قد تعرف، وهو بباريس، بالنائب الفرنسي «فرانسوا دلونكل»، وهو أحد الفرنسيين المهتمين بالمسألة المصرية، وعندما زار هذا النائب مصر كان مصطفى كامل في استقباله بالاسكندرية في ٢١ مارس سنة ١٨٩٥م ومعه عدد من الوطنيين وقنصل فرنسا بالاسكندرية ونخبة من قادة الجالية

الفرنسية في مصر.. وكانت مدة زيارة «فرنسوا دلونكل» لمصر - عشرين يوماً - فرصة ذهبية صحب فيها مصطفى كامل هذا الضيف الفرنسي، فألقيت الخطب الوطنية، ونشرت الأحاديث عن القضية المصرية، وكان ختام هذه الزيارة ذلك الحفل الذي أقيم بفندق «نيو أوتيل» حيث ألقى مصطفى كامل خطاباً، بالفرنسية، عن قضية مصر، شكر فيه النائب الفرنسي على انتصاره لقضيتها ومطالبته بجلاء الانجليز عنها.

* * *

* وفي أول مايو سنة ١٨٩٥م بدأ رحلته الصيفية إلى أوروبا - وهي الرحلة التي أخذت تتكرر كل عام - بهدف الدفاع عن قضية مصر في المحافل الأوروبية، والدعاية لقضية استقلالها، وتجميع قوى الضغط الأوروبية، التي تتناقض مصالحها مع انفراد انجلترا باحتلال مصر، كي تطلب من انجلترا الجلاء عن وادي النيل..

وفي يونيو سنة ١٨٩٥م طبع، بالفرنسية، منشوراً ووزعه على أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية، ضمنه نداء إلى فرنسا تتقدم به مصر، التي رسمت في المنشور مقيدة ترسف في أغلالها، وهي تطلب عون فرنسا على نيل حريتها، كما أعانت من قبل أمماً أخرى على التحرر، منها مثلاً: أمريكا وإيطاليا واليونان وبلجيكا.. ولقد أحدث هذا النداء المبتكر دوياً هائلاً في أوساط الجمعية الوطنية الفرنسية، واستقبله لذلك رئيسها المسيو «بريسون»..

وفي الشهر التالي - يوليو - نشرت له صحيفة (الجورنال)

الباريسية حديثاً سياسياً عن المسألة المصرية، وتناولته بالتعليق صحيفة (الاكلير). .

وفي «تولوز» ألقى في ٤ يوليو أولى خطبه السياسية، وذلك في اجتماع ضم نخبة من الأساتذة والكتاب والصحفيين والنواب وقادة الرأي العام في «تولوز». .

* وفي نفس الشهر - يوليو - سافر إلى فيينا، حيث كتبت عنه ولفتت إليه الأنظار عدة صحف تصدر فيها، من بينها صحيفة (أكسترا بلاط) و(الستاندرد)، وتناولت، بمناسبة زيارته، الحديث عن القضية المصرية.

* ثم عاد إلى باريس ثانية في ٨ أغسطس سنة ١٨٩٥م حيث نشر بها في ١٤ أغسطس رسالته عن (أخطار الاحتلال البريطاني). .

* وفي سبتمبر من نفس العام تعرف على الكاتبة والأديبة الفرنسية الشهيرة مدام جوليت آدم [١٨٣٦ - ١٩٣٦م]، التي تبنت قضية مصر، كما تبنت مصطفى كامل ونضاله، فقدمته إلى الأوساط السياسية والأدبية والصحفية في باريس، وفتحت له الكثير من نوافذ التأثير الفكري والإعلامي بفرنسا، كما فتحت له صفحات مجلتها (لانوفل ريفو) - «المجلة الحديثة» - كي ينشر فيها الأحاديث والمقالات. .

وفي ٩ سبتمبر نشرت له صحيفة (الاكلير) حديثاً حمل فيه على عزم الانجليز إلغاء البعثة التعليمية المصرية بفرنسا. . كما نشرت له صحيفتا (السجولو) و(لانوفل ريفو) الأحاديث والمقالات عن المسألة المصرية.

وفي الجمعية الجغرافية بباريس ألقى خطاباً عن (الاحتلال الانجليزي في مصر) في ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٥م.

ومن باريس أيضاً أرسل إلى زعيم حزب الأحرار الانجليزي «جلادستون» [١٨٠٩ ـ ١٨٩٨م] في ٢ يناير سنة ١٨٩٦ رسالة يذكره بوعوده وتصريحاته عن أن زمن الجلاء عن مصر قد آن أوانه.. ورد عليه «جلادستون».. وكانت هذه المراسلات موضع، تعليق الصحافة الفرنسية، وخاصة (الاكلير) و(الفيجارو)..

* ثم اختتم هذه الرحلة بالعودة إلى مصر، فوصل الاسكندرية في ١٤ يناير سنة ١٨٩٦م.

* * *

* وفي الاسكندرية ألقى، بالمسرح العباسي، في ٣ مارس سنة ١٨٩٦م، أولى خطبه الوطنية الجامعة، فكانت فاتحة نشاط وطني كبير، وأحدثت صدى واسعاً في الدوائر القومية والصحافة المصرية والأجنبية..

* وكانت سلطات الاحتلال قد أخذت تشعر بالمتاعب من نشاط مصطفى كامل الوطني، سواء في مصر أو في أوروبا، فبدأت بواكير غضبها عليه في صورة ذلك الاضطهاد الذي صبته على شقيقه علي فهمي كامل، وكان ضابطاً في الجيش المصري بالسودان.. حيث تعرض للمحاكمة.. والسجن.. والتجريد من رتبته.. والعزل.. ورفضت استقالته.. وأجبر على الخدمة بالسودان كجندي عادي بعد أن كان ضابطاً.. ولما قابل مصطفى كامل الخديو كي يطلب منه التدخل في

الأمر غضب كرومر لاستقبال الخديو له.. وأخيراً نجحت الجهود في إصدار عفو من الخديو عن علي فهمي في شهر أغسطس سنة ١٨٩٦م فعطل اللورد كتشنر، سردار الجيش، تنفيذه حتى شهر أكتوبر؟!

* وفي ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦م ألقى، بالفرنسية، في مسرح زيزينيا، بالاسكندرية، خطاباً جامعاً أمام عدة آلاف من ممثلي الجاليات الأجنبية وقادة الرأي فيها ونخبة من المثقفين المصريين، وكان خطابه هذا أول خطاب يلقيه مصري في اجتماع عام، بلغة أوروبية، منذ الاحتلال الانجليزي لمصر!..

وفي مايو من نفس العام جمع الكاتب والصحفي والوطني محمد بك أبو السعود - صاحب جريدة منفيس - مجموعة الخطب والرسائل والمقالات التي أنشأها مصطفى كامل من مايو سنة ١٨٩٥ حتى مايو سنة ١٨٩٦ وطبعها في كتاب جعل عنوانه (مصر والاحتلال الانجليزي) فكان أول سجل وطني ينشر بمصر ضد الاحتلال..

* * *

* وفي صيف سنة ١٨٩٦م قام برحلة سياسية ثانية إلى أوروبا، فوصل باريس في أول أغسطس، حيث نشرت له صحيفة (ليبر بارول) الفرنسية حديثاً عن الحركة الوطنية المصرية في ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٦م. كما نشرت له صحيفة (الاكلير) حديثاً عن المسألة المصرية في ١٥ سبتمبر بمناسبة ذكرى اليوم الذي احتل الانجليز فيه القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م.

ومن باريس كتب رسالة إلى زعيم حزب الأحرار الانجليزي «جلادستون» بتاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٦م يطلب منه العمل على تأييد جلاء بريطانيا عن مصر، ونصرة القضية المصرية مثلما يناصر قضية الأرمن ضد العثمانيين. . وكانت مراسلاته هذه موضع تعليق صحيفة (الديبا) الفرنسية وغيرها من الصحف.

* ومن باريس سافر إلى برلين فوصلها في أول أكتوبر سنة ١٨٩٦م، فكان وصوله مناسبة لإثارة القضية المصرية في الصحافة الألمانية، وخاصة صحيفتي (برلينر تاجبلاط) و(ذي بوست) اللتين أجرتا معه الأحاديث. .

* ومن برلين انتقل إلى فيينا فوصلها في ١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٦م، وفيها التقى بعدد كبير من الكتاب والصحفيين والساسة والنواب، ونشر في صحيفة (اكتسر تاجبلاط) حديثاً عن المسألة المصرية.

* ومن فيينا انتقل إلى الآستانة، في أول زيارة له لعاصمة الدول العثمانية، فوصلها في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٩٦م واستقبله السلطان عبد الحميد الثاني [١٨٤٢ - ١٩١٨م]، وعبر عن إعجابه بنشاطه المناهض للاستعمار الانجليزي، وأبدى رغبته في منحه رتبة ونيشاناً، ولكن مصطفى كامل اعتذر حتى لا يتهمه خصومه بالعمل لحساب السلطان عبد الحميد، وإن كان الكثيرون من أصدقائه قد لاموه على اعتذاره، وحدثوه عن الرصيد الأدبي الذي يضاف له ولنضاله إذا هو حمل مثل هذه الألقاب والنياشين.

وفي زيارته هذه للأستانة أقام حتى ١١ فبراير، وكانت فرصة لعديد من اللقاءات الصحفية مع عدد من مراسلي الصحف الأوروبية هناك.. فصحيفة (فرنكفورتر تركوريبه) الألمانية نشرت له حديثاً بتاريخ ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦م.. وصحيفة (الأندبندنس بلج) البلجيكية نشرت له حديثاً بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦م.. كما نشرت له صحيفة (النيويورك هرالد) الأمريكية حديثاً أدلى به إلى مراسلها هناك..

ومن الآستانة بعث بعدة رسائل إلى عدد من الساسة والنواب في أوروبا، من بينهم الدكتور «هفمان زنيفر» رئيس حزب اليسار ـ (الشمال) ـ في البرلمان الألماني، والنائب الإيطالي اليساري «كاني فورشللا».

* ثم عاد إلى مصر من رحلته هذه في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٦م.. فاستقبل عند وصوله استقبالاً حافلاً من أصدقائه والمعجبين بنشاطه الوطني الذي كانت أصداؤه الأوروبية تصل مصر وتنعكس في صحافتها..

* * *

* وعقب عودته وجد مكيدة بريطانية أراد المستعمرون بها إسكات صوته عن طريق تجنيده في الجيش، بدعوى أنه قد استدعي للتجنيد، ومر الموعد القانوني للحضور أو إبداء مبرر الإعفاء من التجنيد، دون أن يرد على الاستدعاء ـ ولكن وطنية «شيخ الحارة» الذي أدرك مرامي المكيدة أنقذت مصطفى كامل، فلقد أقر «شيخ الحارة» بأنه قد احتفظ بطلب الاستدعاء دون أن يتسلمه مصطفى كامل، الذي كان غائباً في أوروبا، أو

أحد من ذويه!! . . وكانت مناسبة تناولتها الصحافة في مصر والخارج بالنقد للاحتلال والتعليق على حالة مصر تحت حكم الانجليز.

* وفي يناير سنة ١٨٩٧م مرض مصطفى كامل، بسبب الإجهاد الذي أصابه في العام الماضي، فأمضى أسبوعين في الاستشفاء بضاحية حلوان، عاد بعدهما للنشاط الوطني من جديد . .

* وفي ٢٧ يناير سنة ١٨٩٧م نشرت له صحيفة (برلينر تاجبلاط) الألمانية نداء موجهاً من الحركة الوطنية المصرية إلى الأمة الألمانية كي تناصر مصر في نضالها ضد الاحتلال الانجليزي.

* وفي ٣ مارس سنة ١٨٩٧م بدأ رحلة سياسية جديدة إلى أوروبا، وكان في وداعه الصحفي الأمريكي «جولدنيك»، الذي حصل منه على حديث سياسي نشرته الصحيفة التي يراسلها . .

ومن الاسكندرية وصل إلى تريستا، ومنها إلى فينا، حيث دار بينه وبين السياسي وعضو البرلمان النمسوي الدكتور «وزنر» حديث عن المسألة المصرية، نشرته الصحف وتناقلته وكالات الأنباء . .

وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٩٧م دعا إلى وليمة كبرى في فندق «متروبول» حضرها عدد كبير من الساسة والكتاب والصحفيين والنواب، حيث خطب فيهم عن قضية مصر . .

* ومن فيينا سافر إلى بودابست، عاصمة المجر، في ٢٦

مارس سنة ١٨٩٧م، فرحبت به الصحف المجرية وأثارت القضية المصرية على صفحاتها بمناسبة وجوده في بلادهم..

* ومن بودابست ذهب إلى برلين في ٥ ابريل سنة ١٨٩٧م ونشرت له صحيفة (برلنرتا جبلاط) حديثاً وطنياً في ٧ أبريل.. والتقى هناك بعديد من السياسيين والنواب والكتاب والصحفيين، كما نشرت له صحيفة (برلنر بوست نخرختن) شرحاً وافياً لقضية مصر ونضالها في سبيل الاستقلال..

* وبعد برلين ذهب إلى باريس في أبريل سنة ١٨٩٧م.. وكانت صحافتها ودوائر الرأي والسياسة فيها تشن الحملات ضد العثمانيين بسبب الحرب الناشبة بينهم وبين اليونان، . ولقد امتد نقد الفرنسيين للعثمانيين إلى نقدهم لمصر وحركتها الوطنية التي كانت تتعاطف مع العثمانيين وتجمع الاكتتابات للجيش العثماني، فتصدى مصطفى كامل للدفاع عن موقف الحركة الوطنية المصرية، وعن ضرورة تعاطفها مع الذين يناصرون حقها في الجلاء.. حتى استطاع أن يحول التيار الفرنسي إلى التعاطف ثانية مع الحركة الوطنية المصرية..

* ثم عاد إلى أرض الوطن من رحلته هذه، فوصل مصر في ١٢ مايو سنة ١٨٩٧م.

* * *

* ولقد صادفت عودة مصطفى كامل إلى مصر مناسبة حلول عيد الأضحى المبارك وتحقيق الجيش العثماني الانتصار في حربه باليونان، فأبرق مصطفى كامل إلى السلطان عبد

الحميد مهنئاً بالعيد والنصر.. كما طلب في برقيته هذه أن يشترط السلطان لتحقيق مطلب أوروبا الجلاء العثماني عن اليونان أن يتم الجلاء الانجليزي عن مصرا..

ولقد شرع في حملة جماهيرية كي يكسب الرأي العام لموقفه هذا، وحرص على كسب تأييد الجاليات الأجنبية في مصر لهذا الموقف، فخطب في عدة آلاف بمسرح زيزينيا بالاسكندرية في ٧ يونيو سنة ١٨٩٧م، فشرح موقف الحركة الوطنية الرامي إلى الاستفادة من أزمة اليونان لتحقيق الجلاء عن مصر، وقرر المجتمعون قراراً يؤيد هذا الموقف، وأيده كذلك ممثلو الجاليات الأجنبية بالاسكندرية، ووجد هذا القرار صدى طيباً لدى أصدقاء الحركة الوطنية المصرية بالخارج.

* وفي ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٧م قام مصطفى كامل برحلة سياسية جديدة، فسافر إلى الآستانة حيث وصلها في ٢٩ يونيو، وأدلى فيها بعدة أحاديث لمراسلي الصحف الأجنبية هناك..

* ومن الآستانة سافر إلى بودابست فوصلها في ٧ يوليو سنة ١٨٩٧م، ومنها أرسل في ١١ يوليو خطاباً إلى رئيس وزراء انجلترا اللورد «سلسبري»، يذكره بوعود انجلترا بالجلاء عن مصر، ويطلب منه تنفيذ تلك الوعود، وذلك في مناسبة ذكرى ضرب الأسطول البريطاني لمدينة الاسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢م.

كما نشرت له الصحف المجرية (يسترلويد) و(ماجيا نوك لابجا) الأحاديث عن المسألة المصرية، ونشرت كذلك صحيفة

(نيويورك هرالد) حديثاً عن جهاده في سبيل قضية بلاده.

* ومن بودابست سافر إلى فيينا في ٢٣ يوليو سنة ١٨٩٧م، واستأنف فيها نشاطه الوطني والدعائي للقضية المصرية..

* ومن فيينا سافر إلى باريس في أغسطس سنة ١٨٩٧، فنشرت له صحف (الاكلير) و(لابيه) و(الدبيش كولونيال) عدة أحاديث ومقالات عن المسألة المصرية.

وفي ١٤ سبتمبر دعا إلى اجتماع سياسي حضره المصريون والشرقيون المقيمون بباريس، وألقى فيه خطاباً وطنياً بمناسبة ذكرى اليوم الذي احتل فيه الإنجليز القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م.

* ومن باريس سافر إلى برلين.. ثم عاد ثانية إلى باريس، وتصدى للحملات التي حاول أصحابها إظهار الحركة الوطنية المصرية بمظهر العمالة لحساب العثمانيين

* ثم عاد إلى مصر من رحلته هذه، فوصلها في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٩٧م.

* * *

* وفي ٨ يناير سنة ١٨٩٨م ألقى خطاباً وطنياً جامعاً بمسرح الأزبكية الإيطالي بمناسبة عيد جلوس الخديوي عباس الثاني(*) على عرش الخديوية المصرية.

(*) ولد في سنة ١٨٧٤م وتوفي في سنة ١٩٤٤ وتولى الحكم سنة ١٨٩٢ وعزل سنة ١٩١٤.

كما نشر مقالاً في صحيفة (لوريان) الفرنسية في ٣ فبراير سنة ١٨٩٨م ينفي فيه عن نفسه وحركته تهمة الدعوة إلى الثورة، وهي تهمة كانت الصحيفة قد وجهتها إليه. . فكتب أن طريقه هو الاعتدال والإصرار على تحقيق الاستقلال لمصر دون عنف.

وفي ١٥ مارس سنة ١٨٩٨م نشرت له صحيفة (لاكور ييري) الإيطالية حديثاً عن المسألة المصرية.

* وفي أبريل سنة ١٨٩٨م نشر كتابه (المسألة الشرقية) وتناول فيه تاريخ هذه القضية وتطوراتها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. .

* * *

* وفي ٢٤ يونيو سنة ١٨٩٨م قام برحلة سياسية جديدة. . فزار باريس، ومنها كتب إلى رئيس الوزراء الانجليزي اللورد «سلسبري» يرد على تصريحه الذي قال فيه إن انجلترا قد فتحت مصر بالسيف. .

كما نشر عدداً من المقالات والأحاديث الصحفية في صحيفة (الاكلير) وغيرها. وفي سبتمبر سنة ١٨٩٨م ألقى بباريس خطبة سياسية جامعة. .

* ثم عاد إلى مصر في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٩٨م.

* * *

* وفي صيف سنة ١٨٩٨م وقعت الحادثة المعروفة «بحادثة فاشودة» . وفاشودة هذه قرية سودانية، احتلتها في ١٠

يوليو سنة ١٨٩٨م قوة فرنسية بقيادة الكابتن «مارشان»، وكانت فرنسا تستهدف باحتلالها مناوأة الاحتلال الانجليزي لمصر، وفتح ملف القضية المصرية من جديد.. فتقدمت قوة مصرية يقودها السردار كتشنر [١٨٥٠ ـ ١٩١٧م] لمواجهة القوة الفرنسية، فوصلت فاشودة في سبتمبر سنة ١٨٩٨م.. وفي ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨م انسحبت القوة الفرنسية من «فاشودة»، فأثار تراجعها خيبة أمل لدى الأوساط الوطنية التي كانت تعلق آمالاً على استغلال التناقض الفرنسي ـ الانجليزي «حول المسألة المصرية»، وكان مصطفى كامل في مقدمة القوى التي تعلق الكثير من الآمال على موقف الفرنسيين.. وكانت حادثة فاشودة بداية التراجع الفرنسي أمام انجلترا، ومقدمة للاتفاق الودي الذي عقد بين الدولتين في ٨ أبريل سنة ١٩٠٤م، كما كان هذا الحادث بداية لمرحلة زادت فيها يقظة مصطفى كامل لضرورة التركيز أكثر وأكثر على العمل الوطني الداخلي..

* وفي ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨م ألقى خطاباً وطنياً جامعاً بالمسرح الإيطالي بالأزبكية جعل عنوانه (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز) عالج فيه أحداث الساعة، والواجبات الوطنية أمام المتغيرات الدولية التي أحدثها الانسحاب الفرنسي من «فاشودة»..

* وفي ١٩ يناير سنة ١٨٩٩م وقعت الحكومة المصرية، الخاضعة لسلطات الاحتلال الانجليزي، اتفاقية السودان، التي تقنن الاحتلال الانجليزي للسودان تحت ستار الحكم المشترك «المصري ـ البريطاني» لهذه البلاد.. فشن مصطفى كامل حملة

وطنية باسلة ضد هذه الاتفاقية، معلناً أنها غير قانونية، لأن الحكومة المصرية لا تملك التنازل عن الأقاليم التي عهدت الفرمانات السلطانية العثمانية إلى الخديوية المصرية بحكمها وإدارتها . .

* وفي ٨ يناير سنة ١٨٩٩م بدأ نشاطه التعليمي والتربوي في حقل إنشاء المدارس الوطنية الهادفة إلى تنشئة المواطن المصري الواعي بتاريخ بلاده الوطني والمشوق إلى العمل في سبيل تحريرها . .

وفي مارس سنة ١٨٩٩م تأسست مدرسة مصطفى كامل الابتدائية .

* * *

* وفي ٤ أبريل سنة ١٨٩٩م قام برحلة سياسية جديدة، فسافر إلى فيينا . . ثم باريس . . ثم برلين . . ثم بودابست . . ثم الآستانة . . وفي كل محط من هذه العواصم كان يدلي بالأحاديث الصحفية التي يثير بها الرأي العام العالمي ضد احتلال انجلترا لمصر وعدوانها على السودان . .

* وفي يونيو سنة ١٨٩٩م أنعم عليه السلطان عبد الحميد الثاني برتبة «المتمايز» ـ (بك) ـ .

* ثم عاد من الآستانة إلى باريس في يونيو سنة ١٨٩٩م، وألقى خطاباً سياسياً في نخبة من قادة الفكر والرأي والسياسة الفرنسيين بقصر مدام جولييت آدم . .

* ثم عاد مرة أخرى إلى الآستانة في أغسطس سنة ١٨٩٩م حيث أنعم عليه السلطان بالرتبة الأولى من الصنف الثاني، ثم أنعم عليه كذلك بالوسام المجيدي الثاني..

* وأخيراً عاد إلى القاهرة..

* * *

* وفي ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩م ألقى خطاباً سياسياً جامعاً في مسرح الأزبكية الإيطالي.

* وكان قد أخذ منذ مدة في الإعداد لإصدار صحيفة يومية تكون مدرسة للحركة الوطنية في ميدان الصحافة، فصدرت (اللواء) في اليوم الثاني من يناير سنة ١٩٠٠م (غرة رمضان سنة ١٣١٧هـ)، فكانت أكثر الأصوات الوطنية ارتفاعاً منذ أن احتلت انجلترا مصر.. وأصبح للحركة الوطنية منبرها المعبر عنها أصدق تعبير.

وفي ٢ يونيو سنة ١٩٠٠م ألقى خطاباً سياسياً جامعاً بمسرح زيزينيا بالاسكندرية.

* وفي ١٦ يونيو سنة ١٩٠٠م سافر في رحلة سياسية جديدة، فزار فيينا وبعض العواصم الأوروبية الأخرى.. وعاد إلى مصر من هذه الرحلة في أغسطس سنة ١٩٠٠م.

* وفي أول أكتوبر سنة ١٩٠٠م خطب في حفل وطني أقيم لتوزيع الجوائز على التلاميذ النابغين في مدرسته، وفي خطابه هذا تناول بالحديث منهجه في التربية والتعليم الوطنيين..

* وفي عدد (اللواء) الصادر في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ دعا إلى إحياء الصناعات الوطنية.

* وفي ١٥ أبريل سنة ١٩٠٠م ألقى خطاباً وطنياً في بلدة (بريسم)، بالبحيرة، في حفل افتتاح إحدى المدارس الوطنية هناك.

* * *

* وفي صيف سنة ١٩٠١ قام برحلة سياسية جديدة إلى باريس.. ونشرت له صحيفة (الاكلير) حديثاً عن المسألة المصرية وتطور الحركة الوطنية في مصر..

* وفي ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢م احتفل بتوزيع الجوائز على التلاميذ النابغين بمدرسته، وألقى خطاباً عن المفهوم الوطني للتربية والتعليم..

* وفي الاحتفال بمرور مائة عام هجري على اختيار الشعب المصري لمحمد علي باشا والياً على مصر ألقى خطاباً وطنياً جامعاً تناول فيه تاريخ مصر وقدراتها الكامنة وتطور صراعها ضد الغزاة، وذلك في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢م (١٣ صفر سنة ١٣٢٠هـ).. وكان لخطابه هذا صدى واسع في الصحف العربية والأجنبية، مثل: (الأهرام) و(البصير) و(الفارد الكسندري) و(الريفورم) و(الكويبري أجبسيان) و(الأجبشيان جازيت).. الخ.. الخ..

* * *

* وفي يناير سنة ١٩٠٤م وصلت إلى مصر صديقة حركتها

الوطنية وراعية نشاط مصطفى كامل في فرنسا مدام جوليت آدم، فاستقبلها مع عديد من أعضاء الحركة الوطنية، وصحبها في برنامج حافل زارت فيه أهم معالم الحضارة المصرية.. وكانت زيارتها لمصر مناسبة لنشاط سياسي ووطني شاركت فيه الجالية الفرنسية خصوصاً والجاليات الأوروبية عموماً. كما حضرت حفل توزيع الجوائز على النابغين من تلاميذ مدرسة مصطفى كامل في ١٩ فبراير سنة ١٩٠٤م.. وأقام لها الخديو عباس الثاني وليمة بقصر القبة في ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤م، قبل أن تغادر مصر في ٤ مارس سنة ١٩٠٤م..

* وفي مارس سنة ١٩٠٤م أنعم السلطان عبد الحميد الثاني على مصطفى كامل برتبة الباشوية..

* وفي ٨ أبريل سنة ١٩٠٤م عقد الاتفاق الودي «الانجليزي ـ الفرنسي»، الذي أنهى فترة الصراع بين الدولتين، وأطلق يد فرنسا في مراكش ويد انجلترا في مصر. فزادت خيبة أمل مصطفى كامل في الحكومة الفرنسية، وعلت نبرة الاعتماد على النفس في فكره ونشاطه العملي، وإن يكن ظل حريصاً على نصرة أحرار أوروبا وشعوبها للقضية المصرية..

ولقد قام بشرح الموقف الوطني، بعد الاتفاق الودي، في خطابه الجامع الذي ألقاه بمسرح زيزينيا بالاسكندرية في ٧ يونيو سنة ١٩٠٤م تحت عنوان (الموقف السياسي وواجبات المصريين).. وكان لهذا الخطاب صدى واسع في الصحافة العربية والأوروبية..

* وفي يونيو سنة ١٩٠٤م أصدر كتابه (الشمس المشرقة) الذي كرسه للحديث عن تجربة النهضة الحديثة في اليابان، كي تكون نموذجاً يحتذى لدول الشرق في هذا المضمار.

* وفي ذلك العام ظهر الفتور في علاقاته بالخديو عباس الثاني، لأن الخديو شرع في مهادنة سلطات الاحتلال منذ حادثة فاشودة، ثم زادت مهادنته بعد الاتفاق الودي، ولقد انتقد مصطفى كامل حضور الخديو، لأول مرة، احتفال جيش الاحتلال في ميدان عابدين بعيد جلوس ملك انجلترا في ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٤م.

* وفي ديسمبر سنة ١٩٠٥م أصدر في باريس مجموعة خطبه ورسائله ومقالاته عن المسألة المصرية، مترجمة إلى الفرنسية، في كتاب عنوانه: (المصريون والانجليز) في ٣٢٠ صفحة وقدمت له مدام جولييت آدم، ونشر في أوروبا على نطاق واسع، فكان موضع تعليق الصحف ومثيراً للحديث عن المسألة المصرية في كثير من المحافل الأوروبية.

* وفي ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥م اجتمعت الهيئة التأسيسية (لنادي المدارس العليا) الذي ضم التيار الوطني الذي بلوره مصطفى كامل في صفوف المثقفين، وافتتح النادي في ٥ أبريل سنة ١٩٠٦م، فكان تكوينه المقدمة لتأسيس الحزب الوطني.

* وفي فبراير سنة ١٩٠٦م أضرب طلبة مدرسة الحقوق الخديوية، بوحي وتأثير من سياسة مصطفى كامل الوطنية، واحتجاجاً على السياسة التعليمية والتصرفات الإدارية للمستشار الانجليزي لشؤون المعارف «دانلوب».

* وفي مايو سنة ١٩٠٦م وقعت أحداث الحدود التي عرفت بحادثة «العقبة»، عندما أرادت تركيا مد خط حديدي من «معان» إلى «العقبة»، فرأى الانجليز في ذلك تقوية لمركز تركيا في المواجهة معهم، وثار خلاف بينهما حول حدود مصر الشرقية، انتهزه مصطفى كامل كي يطالب بفتح ملف القضية المصرية وجلاء الانجليز عن البلاد.

* وفي ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦م وقعت أحداث «دنشواي» الشهيرة، وكان مصطفى كامل مريضاً يعالج في أوروبا، فتمرد على أوامر الأطباء، وغادر سرير المرض ليثير ثائرة الرأي العام العالمي، حتى الانجليزي منه، ضد سياسة انجلترا وحكم كرومر في مصر.. وخاصة بمقاله المدوي (إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) الذي نشرته (الفيجارو) الفرنسية، ثم تناقلته صحافة العالم.

* وفي ١٤ يوليو سنة ١٩٠٦م سافر إلى لندن، كي يثير الرأي العام الانجليزي ضد حكومته، وليهاجم انجلترا في عاصمتها، وهناك التقى بعدد كبير من الساسة والنواب والكتاب والصحفيين.. وترجم مقاله (إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) إلى الانجليزية.. ونشرت له جريدة (الديلي كرونكل) في ٢ يوليو سنة ١٩٠٦م حديثاً وطنياً في المسألة المصرية وحادثة «دنشواي».

وفي ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٦م أقامت (جمعية الوحدة الإسلامية الهندية) بلندن مؤتمراً بفندق «كربتريون» حضرته الجاليات الشرقية بلندن وجمع من قادة الرأي العام الانجليزي

ودعت مصطفى كامل كي يخطب فيه، فألقى خطاباً وطنياً شرح فيه أهداف الحركة الوطنية المصرية في الجلاء والاستقلال.

وفي ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٦م أقام بفندق «كارلتون» مأدبة دعا إليها عدداً من الساسة والكتاب والصحفيين والنواب، وخطب فيهم شارحاً أحداث مذبحة «دنشواي» وخطة الحركة الوطنية في مصر.

وفي صحيفة (الديلي جرافيك) نشر مقالاً تحت عنوان (مصر للمصريين) رد فيه على مزاعم القائلين إن الحركة الوطنية في مصر تستهدف التحرر من نير الانجليز كي تعيد مصر إلى نير العثمانيين..

* وفي صيف سنة ١٩٠٦م غادر لندن إلى فيشي للاستشفاء، فاستقبله المصريون هنالك بالترحيب والإعجاب.

* وفي أغسطس سنة ١٩٠٦م تألفت في مصر لجنة شرعت تجمع الاكتتاب كي تقيم حفلاً لتكريم مصطفى كامل عند عودته إلى مصر وتهديه تذكاراً يعبر عن امتنان الأمة لدفاعه عنها في محنتها، وعندما علم بالنبأ، وهو في باريس، كتب إلى محمد فريد في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦م يشكر اللجنة على مشاعرها، ويطلب تحويل الاكتتاب كي يكون نواة مشروع وطني لإنشاء الجامعة المصرية؟!

* ثم عاد إلى مصر في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٦م فاستقبله الشعب استقبالاً حافلاً عبر به عن عرفانه بجهوده الوطنية الرائعة، كما كان تظاهرة وطنية ضد مجزرة «دنشواي».

* وفي نوفمبر سنة ١٩٠٦م كون شركة صحفية أخذت تعد لإصدار صحيفتين وطنيتين، إحداهما بالانجليزية والثانية بالفرنسية، كي يصل صوت الحركة الوطنية إلى كل مكان.. وفي ٢ مارس سنة ١٩٠٧م صدرت (ليتندار أجبسيان) بالفرنسية، وفي يوم ٣ مارس سنة ١٩٠٧م صدرت (ذي أجبشيان ستاندرد) بالانجليزية.. وأقام لهذه المناسبة حفلاً في فندق «الكونتنتال» في ٢ مارس ألقى فيه خطاباً وطنياً جامعاً..

* وفي أبريل سنة ١٩٠٧م أثمرت حملة مصطفى كامل ضد صانعي مجزرة «دنشواي»، فاستقال اللورد كرومر من منصبه.

* وفي ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧م أرسل مصطفى كامل إلى رئيس الوزراء الانجليزي «هنري كامبل بانرمان» خطاباً في ذكرى احتلال الانجليز للقاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م.. ونشرته (الفيجارو) الفرنسية في نفس التاريخ، ونقلته عنها صحف أوروبا ووكالات الأنباء.

* وفي ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م ألقى بمسرح زيزينيا بالاسكندرية خطاباً وطنياً ركز فيه على ضرورة تكوين الحزب الوطني، حزب الجلاء..

* وفي ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧م انعقدت بدار (اللواء) الجمعية العمومية لتأسيس الحزب الوطني، وسط تأييد وطني شعبي تجاوبت به مصر كلها مع الفكرة التي آن الأوان كي تتجسد في حزب يحمل راية الجهاد في سبيل الاستقلال.

* ولم ينس مصطفى كامل ضحايا مذبحة «دنشواي» الذين لم ينفذ فيهم الإعدام، والذين زج بهم في السجن، فقاد حملة وطنية تطالب بالإفراج عنهم، وجمعت لذلك توقيعات ١٢,٦٧٠ مواطناً ملأت ١٤٨ عريضة، ولقد أثمرت هذه الحملة قرار الإفراج الذي أصدره الخديو في ديسمبر سنة ١٩٠٧م، والذي نفذ بمناسبة عيد جلوسه على العرش في ٨ يناير سنة ١٩٠٨م.

* * *

ودخل عام ١٩٠٨م، والمرض قد ازداد شدة على مصطفى كامل، وكان قد صاحب ازدياد المرض عليه حزنه على وفاة والدته في سنة ١٩٠٧م وازدياد نشاطه في سبيل تكوين الحزب الوطني، حتى أن خطابه الذي ألقاه في الجمعية التأسيسية للحزب في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧م كان أشبه بخطبة الوداع التي رسم بها الهدف، وحدد المنهج، وأودعهما الحزب الذي تأسس كي يحمل الراية ويواصل الطريق.. ويومها غادر سرير المرض ليلقي خطابه، ثم عاد إلى نفس السرير.. يفكر.. ويكتب.. ويستقبل زواره ومريديه.. حتى حم القضاء، ووافاه الأجل في الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨م (٨ محرم سنة ١٣٢٦هـ)..

* ولقد كانت جنازة مصطفى كامل في ١١ فبراير سنة ١٩٠٨م حدثاً جليلاً ومشهداً مهيباً لا مثيل له في تاريخ مصر الوطني، عندما خرجت مصر لوداع أبر أبنائها بها وأحناهم عليها وأخلصهم لقضية حريتها وتحريرها، وكأنما أرادت الأمة بهذا المشهد التاريخي الذي ضم صفوفها أن تعلن القرار القائل:

إن مصر قد انتقلت بفضل هذا الشاب الموهوب، الذي استجاب لطاقات الوطنية الكامنة في أحشاء الشعب، فكان التجسيد الحي لها.. إن مصر قد انتقلت إلى عصر جديد.. عصر مواصلة النضال التاريخي الذي مارسه الشعب على مر العصور ضد كل الغزاة وجميع الطغاة..

ولقد وصف قاسم أمين ـ ولم يكن من حزب مصطفى كامل ـ هذه الجنازة الفريدة، فكتب يقول: «١١ فبراير سنة ١٩٠٨م! يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق، المرة الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواي، أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر. هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل!».

* * *

نعم.. فلقد كانت حياة مصطفى كامل، كما كان مماته شهادة صادقة على خلود هذه الأمة وخلود نضالها ضد كل الغزاة والطغاة والخونة والجبناء على مر العصور وتعاقب الأجيال..

ومن الذي يستطيع أن ينكر ذلك، و«بطاقة الحياة» التي قدمناها في هذه الصفحات هي مجرد عناوين لصفحات سجل

حافل بالمجد والبطولة والعبقرية والنبوغ أهداه لوطنه ذلك الفتى الذي مات ـ عن أربعة وثلاثين عاماً ـ في عمر الزهور؟!

وهو بالرغم من عمره القصير بحساب السنين إلا أنه قد كان لأكثر من نصف عمره هذا كوكب الوطنية اللامع والمضيء في سماء هذه البلاد.. كما كان ولا يزال أصدق نموذج للخلق الوطني والفداء القومي الذي بلغ حد الحب الصوفي لحضارة هذه الأمة ومقاومتها التاريخية وإبائها الاستسلام للغزاة والطغاة.

الجامعة الإسلامية . . .

[لقد راجت الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات بين العامة باسم الدين. . ولا سبيل لإبادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم الدين إلا بالدين نفسه.

إن حركة الجامعة الإسلامية، بمعنى الحرب الدينية، لا وجود لها بالمرة. . ولا يوجد مسلم متنور يدعو إلى تأليف عصبية إسلامية ضد المسيحية. . .

لقد أدرك المسلمون من زمان بعيد استحالة العيش في معزل عن العالم. . وأن ميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي، يزكيه أن لتأخر الشعوب الإسلامية أسباباً واحدة. .

وبالتعليم والنور وإحياء الأفكار ونشر المعارف وإرشاد الأمة إلى الحقيقة الدينية يتقدم المسلمون. .].

مصطفى كامل

كان مصطفى كامل من أنصار الجامعة الإسلامية، بل من دعاتها، وسواء في عصره أو بعد موته، فلقد وجهت إليه الانتقادات والاتهامات لرفعه هذا الشعار ونضاله تحت ألويته وأعلامه! وفي العديد من خطبه ومقالاته ورسائله نقرأ دفاعاً عن الجامعة الإسلامية، وتفسيراً لمفهومه لها والمضمون الذي يعنيه عندما يرفع هذا الشعار.

ولم يكن غريباً أن ينخرط مصطفى كامل والتيار الوطني الذي بلوره وقاده ورعاه مع القوى العديدة التي اتجهت للعمل الفكري والسياسي تحت شعار الجامعة الإسلامية، لأن هذا الشعار كان أبرز الشعارات التي عرفها الشرق كله في القرن التاسع عشر، وعلى الأخص في النصف الثاني منه.. ولكن الغريب هو عدم التمييز بين التيارات المختلفة والمتمايزة التي استظلت بشعارات الجامعة الإسلامية وأعلامها، تلك التيارات التي رفعت جميعاً هذا الشعار، ولكن من منطلقات غير متحدة، ولأهداف متعددة، وإن جمعت بينها جميعاً بعض القسمات والغايات.. ونحن نعتقد أن هذا الخلط الذي قاد أصحابه للنظر إلى حركة الجامعة الإسلامية باعتبارها تياراً فكرياً وسياسياً واحداً، لا عدة تيارات، هو المسؤول عن تلك الأفكار

المغلوطة، التي تبلورت في شكل عدد من الاتهامات التي وجهت إلى نضال مصطفى كامل تحت هذا الشعار . .

فالجامعة الإسلامية، تعني، في الأساس، ذلك التيار الفكري والسياسي الذي أبصر قادته وأنصاره أن هناك عدداً من التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي والشعوب والأمم الإسلامية، سواء أكانت تلك التحديات آتية من داخل الأوطان الإسلامية، كالتخلف الفكري والروحي والانحدار الحضاري والسياسي والصراعات الإقليمية والقبلية، أو آتية من الخارج في شكل المد الاستعماري والامبريالي الذي زحف من أوروبا على الشرق، وخاصة في القرن التاسع عشر . . تيار الجامعة الإسلامية هو الذي أبصر أصحابه هذه التحديات، ثم آمنوا بأن تشخيصها في مختلف هذه البلاد، له كذلك طريق واحد يؤدي إلى تلك الغاية الواحدة المنشودة، وهي التغلب على هذه التحديات، والعودة بهذه الأمم والشعوب الإسلامية إلى دائرة التأثير الإنساني والعطاء الحضاري كما كانت قبل أن تقهرها هذه التحديات . .

ذلك هو الوصف العام لتيار الجامعة الإسلامية، الفكري والسياسي، كما عرفه الشرق في ذلك التاريخ . . ولكن وحدة هذا الشعار لم تخف في يوم من الأيام عن عين الباحث المتأمل تلك الفروق الجوهرية التي جعلت، في الحقيقة والواقع، من تيار الجامعة الإسلامية عدداً من التيارات، بينها من عوامل الاختلاف والتمايز، أحياناً، أكثر مما بينها من أوجه الوفاق والاتفاق . . ومن ثم فإن الحديث عن (مصطفى كامل والجامعة الإسلامية)

يتطلب أولاً أن نحدد موقعه الفكري والسياسي من «خريطة» تيارات الجامعة الإسلامية، وهو الأمر الذي يستدعي في البداية إلقاء نظرة على «خريطة» هذه التيارات..

(تيارات في إطار الجامعة الإسلامية)

* ونحن نستطيع أن نذكر الحركة الوهابية، التي أسسها زعيمها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢م) كأقدم تيار فكري وسياسي يمكن أن يندرج تحت شعار «الجامعة الإسلامية» في عصرنا الحديث.. فلقد كانت الوهابية ـ في الفكر ـ حركة ترمي إلى تجديد شباب الإسلام والمسلمين عن طريق طرح رُكام البدع والخرافات التي دخلت في عقائد المسلمين، وهي البدع والخرافات التي كانت تكون الجزء الأساسي من تصور السلطنة العثمانية ومؤسساتها عن عقائد الإسلام، ومن ثم كانت الوهابية ـ سياسياً ـ حركة مناهضة للعثمانيين..[1].

* ولقد كانت الحركة السنوسية التي أسسها بالمغرب العربي محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م) هي الامتداد الوهابي إلى بلاد الشمال الإفريقي، بعد أن أدخلت في بنيتها الفكرية ونشاطها العملي خصائص المكان وتحديات الاستعمار الغربي، وخاصة الفرنسي، التي كانت تزحف على تلك المنطقة في ذلك الحين.. ومن ثم فإن السنوسية كذلك،

---

(١) انظر (حاضر العالم الإسلامي) تأليف: لوثروب ستودارد. ترجمة: عجاج نويهض. مجلد ١ جـ١ ص ٢٩١. طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.

بطابعها الصوفي الذي تميزت به عن الوهابية، كانت هي الأخرى تياراً يعمل ويناضل تحت هذا الشعار..[2].

* بل إن تيار الحركة الإسماعيلية الحديثة التي كان من أبرز قادتها «أغاخان» (١٨٧٧ ـ ١٩٥٧م) قد عمل هو الآخر تحت شعار الجامعة الإسلامية، وفي ذلك يقول أغاخان: «إن هناك جامعة إسلامية حقة صريحة ينضم إلى لوائها الحر كل مسلم مؤمن مخلص، أعني بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية، فهذه الوحدة الإسلامية الروحانية التهذيبية يجب أن تتعهد فتنمو أبداً، لأنها عند اتباع النبي أس الحياة وجوهر النفس!»[3].

فتحت شعار الجامعة الإسلامية، إذاً، نجد: الوهابية بقسماتها السلفية.. والسنوسية باتجاهاتها الصوفية.. والإسماعيلية بما تتميز به من أسرار وباطنية تستدعي وضع العديد من علامات الاستفهام؟!

* ثم، هناك ذلك التيار الذي كان أبرز تيارات الجامعة الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي تزعمه فيلسوف الشرق وموقظه جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) والذي زامله فيه الأستاذ الإمام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م).. ولقد تميز هذا التيار بعدد من الخصائص في مقدمتها:

---

(٢) المصدر السابق. مجلد ١ جـ١ ص ٢٩٠

(٣) المصدر السابق. مجلد ١ جـ١ ص ٣٢٠.

١ ـ الإصلاح الديني من منطلق العقلانية الإسلامية، إيماناً بأن الشرق لن ينتصر في صراعه مع الغرب إلا إذا تسلح بسلاح العقل، ذلك السلاح الذي ضمن للغرب تفوقه في هذا الصراع.

٢ ـ تجديد الصلات الحضارية مع الغرب، واقتباس المناسب منها ـ كما صنع العرب في العصر العباسي ـ حتى يتمكن الشرق من العودة إلى دائرة التأثير والعطاء الحضاري.

٣ ـ المحافظة على بقاء السلطنة العثمانية، وتنمية جوانبها الإيجابية، والعمل على تجديد شبابها، لا من منطلق الإيمان بها كخلافة إسلامية وإمارة للمؤمنين، وإنما من منطلق الضرورات التي يحتمها التصدي للعدو الرئيسي وهو الاستعمار الأوروبي الزاحف على بلاد الإسلام.. فهو يحافظ عليها سياسياً، ويحاول تنمية قواها السياسية، ويهاجم فكرتيها الرجعية المتخلفة بهدف تطويرها وتجديد شبابها..

ومن أجل ذلك لم يناصر هذا التيار ـ في كثير من الأحيان ـ حركات الاستقلال القومي العربي عن الامبراطورية العثمانية، لأنه كان يبصر تربص الاستعمار الأوروبي كي يكونُ هو الفائز الأول، وربما الوحيد، من وراء الصراع القومي ضد العثمانيين.. ويعبر عن هذه الحقيقة رأي الإمام محمد عبده في أهلية عرب شبه الجزيرة العربية للاستقلال عن تركيا إذ يقول: «إن العرب أهل لذلك، ولكن الترك لا يمكنونهم منه، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم، فإذا شعروا بذلك

أو رأوا بوادره قاتلوهم، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبة الواقفة لهما بالمرصاد، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما، وهذان الشعبان ـ (العرب والأتراك) ـ هما أقوى شعوب الإسلام، فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته»[٤].

٤ ـ وانطلاقاً من هذا التأييد السياسي للسلطنة العثمانية اجتهد هذا التيار كي يجعل من «علاقة الدين والمعتقد» بديلاً للعلاقات القومية ـ (الجنسية) ـ التي كانت تنمو يومئذ في عدد غير قليل من الأقطار المحكومة بسلطة آل عثمان. . ولقد عبرت مجلة (العروة الوثقى) عن هذه الخاصية التي كانت من أبرز خصائص هذا التيار، فكتبت: أنه «لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم»[٥] و«أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم»[٦] وأن المسلمين، تاريخياً «لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين، فلهذا ترى المغربي لا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض، وأن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل

---

(٤) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. جـ ١ ص ٧٣٥ طبعة بيروت ١٩٧٢م.

(٥) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. ص ٣٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٦) المصدر السابق. ص ٣٠٧.

إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها»[7].

ولقد واصل الإمام محمد عبده، بعد (العروة الوثقى) التبشير بنفس الأفكار، ففي إحدى فتاواه سنة ١٣٢٢هـ ـ قبل وفاته بعام واحد ـ يقول: إن «الجنسية ليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجري عليهم، لا في خاصتهم ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب: عصبية.. جاء الإسلام فألغى تلك العصبية.. فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة.. لا جنسية في الإسلام..»[8].

٥ ـ ولكن هذا المفهوم المناهض للتمايز القومي وحركات التبلور المرتكزة على أسس قومية لم يجعل هذا التيار من تيارات الجامعة الإسلامية ينكر الاستقلال الذاتي على الشعوب الإسلامية المؤهلة لذلك عن سلطة العثمانيين، يشهد لذلك أن هذا التيار هو الذي رفع شعار «مصر للمصريين» قبيل الثورة العرابية، من خلال (الحزب الوطني) السري الذي قاده الأفغاني في مصر، وأن هذا التيار قد شارك ـ من موقع الاعتدال ـ في الثورة العرابية ذات الطابع القومي المصري.. فهو لم يكن يدعو إلى «وحدة الدولة» بين كل المسلمين، لاعتبارات عملية كثيرة جعلته يطلب «وحدة السياسة» و«التضامن» الإسلاميين،

---

(٧) المصدر السابق. ص ٣٤٩، ٣٥٠.

(٨) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. جـ ٦ ص ٢٥٤، ٢٥٥.

بدلاً من «وحدة الدولة»، والأفغاني يعبر عن ذلك المطلب في (العروة الوثقى) فيقول: أنا لا أطلب «أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه...»[٩].

كما يعبر عنها الإمام محمد عبده فيقول في رده على «جبرييل هانوتو»: «.. يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية، والسلطان عبد الحميد، ويعلقون آمالهم بهمته، وكثير منهم يدعون إلى عقد الولاء له، وهذا أمر لا ينبغي أن يدهش أحداً، فإن هذه الدولة هي أكبر دول الإسلام، وسلطانها أفخم سلاطينهم، ومنه يرتجى إنقاذ ما بين يديه من المسلمين مما حل بهم، وهو أقدر الناس على إصلاح شؤونهم، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع إلى أصول الدين الطاهرة النقية...»[١٠].

٦ ـ كما يمتاز هذا التيار من تيارات الجامعة الإسلامية بدعوته الدائمة إلى توحيد العناصر الوطنية للأقطار الإسلامية بصرف النظر عن العقائد والأديان.. فتيار الجامعة الإسلامية ـ في هذا الحقل ـ هو عندهم تيار الجامعة الشرقية العامل في سبيل يقظة الشرق ونهضته، وما الحديث عن المسلمين إلا

---

(٩) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني. ص ٣٤٥.

(١٠) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. جـ ٣ ص ٢٣٢، ٢٣٣.

بسبب من أن الأغلبية مسلمة والكثير من الأمراض إنما مصدرها ما أصاب عقائد المسلمين الدينية من تخلف وجمود أبعدها عن جوهرها النقي الأصيل. . فالأفغاني لا يميز بين الناس على أساس من الدين والمعتقد، بل يقطع بأنك «لا ترى في الأديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري، بل بالعكس تحضه على أن يعمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه، وتحظر عليه عمل الشر مع أي كان. . . أما اختلاف أهل الأديان فليس هو من تعاليمها، ولا أثر له في كتبها، وإنما هو صنع بعض رؤساء الأديان، الذين يتجرون بالدين، ويشترون بآياته ثمناً قليلاً. ساء ما يفعلون»[11] والإمام محمد عبده، الذي كون في منفاه ببيروت جمعية لتوحيد الأديان، يحذر من التفرقة بين أبناء الوطن الواحد بسبب تعدد الأديان، لأنه «إذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحط شأن الأخرى، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم!»[12].

٧ ـ هذا عن الوحدة الوطنية في الداخل. . . أما عن الخارج، فإن هذا التيار لم ير في الجامعة الإسلامية حركة يواجه فيها إسلام الشرق مسيحية الغربيين، فهي ليست عودة إلى الصراعات الدينية والحروب المقدسة، وإنما هي تيار سياسي وحضاري يبغي يقظة الشرق كي يدفع عن نفسه التحديات الداخلية والخارجية على السواء. . وعن هذه القسمة من قسمات ذلك التيار يقول الإمام محمد عبده: إنه «لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين، سواء في مصر أو غيرها، أن

---

(١١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني. ص ٢٩٢.

(١٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. جـ١ ص ٦٥٣.

يثير فتنة على الأوروبيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين. . . وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون. . . لاستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم. . . وهو سوء ظن. . . فإن أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض. . . نعم. . يعرض في طريق الدعوة إلى الدين، من هذا الوجه، أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم بسوريا أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان، أو بغير هذه الأقطار، لأن مرض الجميع واحد، وهو البدعة في الدين، فإذا نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة لمريض في موضع آخر. . .»[(١٣)].

فهو إذاً، تيار سياسي وفكري ناضل تحت شعار الجامعة الإسلامية من أجل يقظة الشرق كله، على أساس من وحدة العقيدة الإسلامية كبديل للتقسيمات والتجزئة القومية. . وعلى أساس من التأييد والمساندة للسلطنة العثمانية ـ التي رام تجديدها وتقويتها في ذات الوقت ـ كراية يحتشد الشرق من خلفها ضد الزحف الاستعماري الأوروبي. . وعلى أساس من تجديد الفكر الديني وتطويره بالعقل والعقلانية. . وعلى أساس من الانفتاح على الحضارة الأوروبية والاستفادة من عطائها الملائم والضروري. . واستناداً إلى وحدة وطنية تجمع أبناء الأديان الشرقية الثلاث، وخاصة المسلمين والمسيحيين. . . تلك هي ملامح ذلك التيار الذي كان أبرز تيارات الجامعة الإسلامية في ذلك الحين.

---

(١٣) المصدر السابق. جـ ٣ ص ٢٣٢.

* ثم هناك التيار الذي مثله المفكر العربي الإسلامي عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م) وهو الذي رام تجديد حياة العالم الإسلامي، ولكن تحت قيادة العنصر العربي، فكانت الجامعة الإسلامية عنده تياراً مناهضاً للأتراك العثمانيين[١٤].

* ثم هناك أخيراً التيار العثماني في الجامعة الإسلامية، وهو الذي قاده السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ ـ ١٩١٨م) نحواً من ثلاثين عاماً... وهو التيار الذي كانت تعني فكرة الجامعة الإسلامية لديه وحدة دولة الامبراطورية العثمانية واحكام قبضتها على كل أجزاء العالم الإسلامي، واستبعاد كل العوامل والتيارات التي تعرقل الوصول إلى هذا الهدف الأصيل..

تلك هي التيارات الأساسية التي عرفتها حركة الجامعة الإسلامية.. فأين كان موقع مصطفى كامل وحزبه الوطني وتياره السياسي والفكري من هذه الخريطة التي رسمنا أهم معالمها؟ وإذا كان التيار الذي عبر عنه الأفغاني ومحمد عبده قد كان أكثر تيارات الجامعة الإسلامية عمقاً وتقدماً، فما مكان مصطفى كامل ـ كداعية من دعاة الجامعة الإسلامية ـ من هذا التيار بالذات؟؟ أكان عن يمينه، ومتخلفاً عنه؟ أم تقدمه، واستشرف آفاقاً أكثر تطوراً وتقدماً من تلك التي وصل إلى آفاقها ذلك التيار؟؟ وإذا كانت علاقته بالعثمانيين وسلطانهم قد

---

(١٤) انظر الدراسة التي قدمنا بها لأعماله الكاملة، وخاصة صفحات ٣٤ ـ ٥٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

كانت دوماً مغمزاً لخصومه ومناوئيه، فما مكانه من التيار العثماني في حركة الجامعة الإسلامية؟ ومن ثم ما هي القيمة الموضوعية للاتهامات التي وجهت إليه في هذا المجال؟؟..

(الاتهام..)

ليس هناك من طعن، أو من يستطيع أن يطعن في وطنية مصطفى كامل،، وحبه، بل عشقه لمصر وهيامه بها، والوطنية كانت هي الرسالة الأولى، إن لم تكن المهمة الوحيدة لهذا الزعيم العظيم في هذه الحياة.. ولكن هناك من طعن في موقفه من حركة الجامعة الإسلامية، وعلاقته بتركيا والسلطان العثماني، ثم اتخذ الطعن في هذا الجانب من جوانب فكر مصطفى كامل ونشاطه سبيلاً للطعن في وطنيته... ومن هنا كان جلاء هذه الصفحة من صفحات نضاله ضرورياً لرد السهام التي وجهت، بطريق غير مباشر، إلى لب القضية والرسالة التي عاش لها ومات في سبيلها... ومن هنا كذلك كان اختيارنا للمنهج الذي نتبعه في هذه الدراسة.. منهج جلاء الحقيقة من خلال مناقشة الاتهامات....

ونحن نستطيع أن نلخص الاتهامات التي وجهت إلى فكّر مصطفى كامل ونشاطه الخاص بحركة الجامعة الإسلامية فيما يلي:

أولاً: أن اعتماده الأول والأساسي في مناوأة الاحتلال الانجليزي لمصر، كان على تركيا والسلطان العثماني، ثم يأتي بعد ذلك اعتماده على التناقض في جبهة الدول الأوروبية

والتنافس بين هذه الدول وبين انجلترا. . ومن ثم فلقد أهمل في حركته ونشاطه الشعب المصري، ولم يتنبه إلى هذا النقص الخطير في نشاطه إلا بعد خيبة أمله في أوروبا، وفرنسا بالذات، عندما عقدت الاتفاق الودي بينها وبين انجلترا في ٨ ابريل سنة ١٩٠٤م. وفي ذلك يقول أحد المستشرقين: «كان مصطفى كامل حينذاك يشاطر البرجوازية المصرية في عدم إيمانها بقوى وإمكانية الحركة الشعبية الجماهيرية. وكان يأمل الحصول على التحرر الوطني عن طريق استغلال التناقضات بين انكلترا وفرنسا، وكرس لهذه الغاية كل طاقته وقواه. . . وظن أن تركيا وحليفتيها الأوروبيتين: ألمانيا والنمسا ـ المجر قد تسانده من الخارج بعد أن خانته فرنسا، وهو في حاجة ماسة إلى سند خارجي. . . ثم اعتبر التثقيف والدعاية للآراء الوطنية كوسيلة أخرى للنضال من أجل استقلال مصر، وأولى اهتماماً خاصاً لهذه الوسيلة بعدما تبين له بأن تاكتيك استغلال التناقضات الأنكلو ـ فرنسية عديم الجدوى»(١٥).

ثانياً: أن مصطفى كامل كان يعني بشعار الجامعة الإسلامية العودة بمصر، بعد تحريرها من الاستعمار الانجليزي، إلى حظيرة الدولة العثمانية، سواء أكانت عودتها تلك «كولاية عادية»، أو «كولاية ممتازة» تتمتع باستقلال ذاتي عن آل عثمان. . وفي ذلك يقال عنه: إنه «لم يرفع شعار استقلال مصر التام، بل ناضل لإعادة البلاد إلى حظيرة

---

(١٥) لوتسكي (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ٢٨٩، ٢٩٠. طبعة موسكو، العربية، سنة ١٩٧١.

الامبراطورية العثمانية، وبهذه المناسبة بشر بفكرة الجامعة الإسلامية..»[16].

وكما ترددت هذه الاتهامات بعد وفاة مصطفى كامل، فلقد وجهت إليه في حياته، وانبرى للرد عليها[17].

ثالثاً: أن شعار الجامعة الإسلامية عند مصطفى كامل كان ذا مضمون طائفي، فحديثه كان عن المسلمين دون الأقباط من أبناء مصر، ودعوته كانت لمواجهة بين إسلام الشرق ومسيحية الغرب، وفكره كان رجعياً متخلفاً عن روح العصر وعن المدنية الأوروبية على وجه التحديد..

وإذا كانت هذه هي الاتهامات الأساسية التي وجهت وتوجه إلى موقف مصطفى كامل من شعار الجامعة الإسلامية وحركتها، فإننا واجدون ـ لحسن الحظ ـ في فكره ونشاطه ومواقفه ما يفندها وينقضها، جميعاً وبلا استثناء...

(التوازن الدولي)

(ودور تناقضات أوروبا في حل المسألة المصرية)

يعكس الاتهام الأول الذي يرى أصحابه أن مصطفى كامل قد اعتمد اعتماداً كلياً على تركيا وبعض حليفاتها في مناوأة الاحتلال الانجليزي لمصر، ومن ثم فلقد أهمل العمل الوطني

---

(١٦) المرجع السابق. ص ٢٩٠.

(١٧) عبد الرحمن الرافعي (مصطفى كامل، باعث الحركة الوطنية) ص ٥٠٧، ٥٠٨، ٣٥١، ٥١٠، ٥١١، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٢م.

في داخل مصر ذاتها حتى حدث الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤م، يعكس هذا الاتهام مزيجاً من الجهل وإنكار الحقائق التي سطرها نضال هذا الزعيم العظيم..

ذلك أن مصطفى كامل قد أدرك، بدراسته لتاريخ مصر وتاريخ قضيتها الوطنية، أن الصراع من حولها قد كان، على مر عصور التاريخ، قضية دولية، ولم يكن في يوم من الأيام مواجهة مقصورة على الشعب المصري والمحتل الذي يفرض عليها احتلاله.. ومن ثم فإن النضال لتحرير هذا الوطن لا بد وأن يدخل أصحابه في حسبانهم عناصر خريطة المجتمع الدولي، والمهتم منها بهذه البقعة على وجه الخصوص.. ولقد كانت هذه الحقيقة في ذهن مصطفى كامل واضحة تمام الوضوح، لأنها قد ارتبطت بحركة الصراع بين مصر وبين الغزاة حتى فيما قبل العصر الحديث.. ولقد وعاها ومارس لعبتها، قبيل العصر الحديث، علي بك الكبير (١٧٢٨ ـ ١٧٧٣م) في صراعه ضد العثمانيين عندما تحالف مع الروس.. كما مارسها محمد علي باشا (١٧٦٩ ـ ١٨٤٩م) بكل وضوح وجلاء، سواء في صراعه ضد العثمانيين أو ضد تحالفهم مع الانجليز أو ضد تحالف الانجليز مع بقايا المماليك..

ونحن نعتقد أن عمق وعي مصطفى كامل لهذه الحقيقة ـ على صغر سنه عندما بدأ نضاله الوطني ـ إنما تعكس، إلى جانب دراسته المتأنية لقضية تحرير مصر وتاريخ نضالها، ذلك النبوغ المبكر الذي تميز به هذا الزعيم العظيم..

فهو يطرح هذه القضية عندما يتحدث عن أهمية استغلال

المتناقضات، في المسرح الدولي، لحساب تحرير مصر، وعن دور التناقض بين تركيا وانجلترا في جعل تركيا تؤيد تحرير مصر، وعن دور الحركة الوطنية المصرية في تنمية هذه الإيجابية والحيلولة دون تمكن انجلترا من حل هذا التناقض لحسابها الخاص... يطرح ذلك عندما يناقش خصومه الذين يتهمونه بأن دعوته للجامعة الإسلامية تعني استبدال الاحتلال الانجليزي بالاستعمار العثماني، فيقول:

«أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استعباد، وأنهم إنما يطلبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد، فهي دعوى لا يقبلها ذو لب، ولا يسلم بها أحد من العقلاء، فإننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا، ونتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة..

إلا أن هذا الاعتقاد الذي خدمناه ونخدمه لا يمنعنا من النظر إلى وجهة أخرى للمسألة المصرية، وهي الوجهة الدولية، **فإن كل إنسان له إلمام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم أن مسألة مصر كانت دائماً دولية، لأن مركز مصر يقضي على الدول كلها الاهتمام بها**. وما على الكتاب الطاعنين علينا إلا أن يراجعوا كتاب المسيو «فريسينيه» السياسي الفرنسي الشهير، وغيره من أكابر السياسيين، ليعرفوا أنهم يطالبون ألمانيا بتغيير خطتها في المسألة المصرية، ويذكرونها بأهمية قنال السويس، وما يكون للدولة التي تضع يدها عليه من القوى والنفوذ، ليتذكر هؤلاء الكتاب **بأن أوروبا لم تعمل شيئاً في مصر إلا بالاتفاق مع السلطان... وأن انجلترا تود الاتفاق مع جلالته على مسألة**

مصر لتقبرها . . . فاهتمام المصريين بالوجهة الدولية للمسألة المصرية أمر طبيعي وواجب . . ولو كانت أرقى الأمم شأناً في موضعنا، وفعلت فعلنا، لقال عنها المنصفون إنها مدركة لمعنى الوطنية الحقة!»[١٨].

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن هذا الوعي، من مصطفى كامل، بأهمية الجانب الدولي للمسألة المصرية كان من أسباب أهتمامه الشديد بالدعاية لقضيتها في خارج مصر، وخاصة في محافل الدول التي تتناقض مصالحها مع سيطرة انجلترا بمفردها على مقاليد الأمور في مصر . .

ففي «فيينا» يسأل مصطفى كامل أحد نوابها ـ الدكتور «رزنر» ـ في مارس سنة ١٨٩٧م عن موقف بلاده من قضية مصر قائلاً: «هل يكون لمصر حظ يذكر عند قيام النزاع بين ألمانيا وانجلترا في يوم من الأيام؟»[١٩].

ومع السياسيين الألمان يثير القضية من نفس الزاوية، فيأتيه جواب أحد زعمائهم، وهو الدكتور «هفمان زينفر» الذي كان يرأس حزب اليسار ـ (الشمال) ـ في البرلمان الألماني، يأتي جوابه ليؤكد أن عامل التوازن الدولي، الذي يبصر مصطفى كامل أهميته، هو المحرك لمواقف الأوروبيين من قضية مصر، فيقول الدكتور «هفمان زينفر»: «إني أوافقك على وجوب جلاء الانجليز عن مصر، لا لأن الألمان يكرهونهم ـ كما يشاع عنا

---

(١٨) اللواء في ٢ مايو سنة ١٩٠٦م.

(١٩) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٩٦.

بلا حق ـ ولكن لتحقيق مسألة التوازن الدولي العام، ولمصلحة قناة السويس»[٢٠].

وعندما تثير انجلترا العديد من المشاكل أمام العديد من الدول الأوروبية يدرك مصطفى كامل صلة ذلك بقضية تحرير مصر وتأثيره على اهتمام الدول بمناوأة انجلترا في مصر، فيكتب في الـ«نيويورك هرالد» الأمريكية في يوليو سنة ١٨٩٧ ليقول: «لقد خلقت انجلترا مسألة الترنسفال لتشغل ألمانيا، وخلقت مسألتى الأرمن واليونان لتشغل تركيا، كما تسعى لحفر بئر لروسيا في الشرق الأقصى، وكل هذه المسائل تعطل كثيراً عرض مسألة مصر على بساط البحث، وإعطاءها حقها بين الأمم الحرة»[٢١].

بل لقد انتقل مصطفى كامل بهذا السلاح ـ سلاح التوازن الدولي والمصالح الدولية المتعارضة ـ إلى الجبهة الداخلية بمصر، كي يكسب إلى صف الحركة الوطنية الجاليات الأجنبية التي ينتمي أبناؤها إلى أمم أوروبية، من غير الانجليز، وفي إحدى خطبه التي ألقاها بالفرنسية في مؤتمر لأبناء هذه الجاليات بالاسكندرية ـ ١٣ ابريل سنة ١٨٩٦م ـ يقول لهم: «إن من صالح الأوروبيين النازلين في مصر أن يتحقق الجلاء، لأنه إذا صارت انجلترا مالكة لمصر تصير حياة الأوربيين على شواطىء وادي النيل من الأمور المستحيلة، فإنكم هنا وكلاء

(٢٠) المرجع السابق. ص ٨٨.
(٢١) المرجع السابق. ص ١٠٥.

المدنية الأوروبية في العلوم والفنون، كما أنكم وكلاؤها في التجارة والصناعة، واليوم الذي تصير فيه انجلترا صاحبة مصر تضع يدها على كل شيء، غير تاركة شيئاً ما لأحد، وتدعي عندئذ أنها الوكيلة الوحيدة للمدنية أمام وادي النيل!»[٢٢].

فهو إذن وعي عميق بدور المجتمع الدولي في حل القضية المصرية، وإدراك للتناقضات القائمة في ساحة هذا المجتمع الدولي، ودور الاستفادة منها في تدعيم مركز الحركة الوطنية، وهو جانب من جوانب نبوغ مصطفى كامل المبكر، عبر عنه الخديو عباس الثاني عندما كتب في مذكراته: إن مصطفى كامل «كان يفهم ـ وقد درس وعاش في أوروبا ـ أن بلداً طامحاً إلى الازدهار يجب أن يسهر بعناية على علاقاته مع البلاد الأجنبية، ولم يهمل مطلقاً ذلك الرأي، فكان صوته بذلك يذهب بعيداً، وكان يسمع فيما وراء النيل!»[٢٣].

---

(٢٢) المرجع السابق. ص ٤٦٥.

(٢٣) المرجع السابق. ص ٣٥٣، ٣٥٤.

(الاعتماد على النفس)

ولكن.. هل أدى إدراك مصطفى كامل لدور تركيا والجامعة الإسلامية، ودور تناقضات عدد من الدول الأوروبية مع انجلترا، هل أدى إدراكه لهذا الدور في حل المسألة المصرية إلى إهماله دور العنصر الوطني والشعب المصري والحركة الوطنية المصرية في هذا الصراع، كما يقول خصومه ومتهموه؟؟..

لننتظر حتى نصل إلى الجواب..

من المعروف أن نغمة الشكوى من الدول الأوروبية، والحديث عن خيبة الأمل فيها لم تبدأ في الظهور في تراث مصطفى كامل قبل تراجع فرنسا أمام انجلترا في حادثة «فاشودة»، عندما طلبت الحكومة الفرنسية من قوتها العسكرية التي أرسلتها لاحتلال تلك البلدة السودانية، كي تفتح بهذا الاحتلال ملف القضية المصرية، دولياً، ثم طلبت منها الانسحاب تراجعاً وتفادياً لمواجهة عسكرية، ولقد تم هذا الإنسحاب في ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨م..

ومنذ ذلك الحين بدأ الخديو عباس الثاني سياسة مهادنة سلطات الاحتلال في مصر، والابتعاد عن دعم حركة مصطفى كامل.. ومنذ ذلك التاريخ بدأت نغمة الشكوى من أوروبا، وعدم الثقة فيها تظهر في تراث مصطفى كامل..

ثم جاءت حرب البوير، ووقفت أوروبا ـ وخاصة ألمانيا ـ موقفاً سلبياً مكن انجلترا من سحق هذه الحركة الوطنية. . فعلت نغمة اليأس من أوروبا في كلمات مصطفى كامل. . فكتب إلى مدام جولييت آدم في ٢١ يونيو سنة ١٩٠٠م يقول: «إني لا أجد كلمات تسع إعرابي لك عن استيائي من أوروبا والمدنية الإنسانية التي قضت بهجر البوير البواسل! أي عار وأي درس لنا نحن الذين طالما كنا نعتمد على أوروبا؟!»[٢٤]. . ثم كتب في نفس العام: «إن المعتمد على أوروبا واقف على هاوية عميقة القرار، وأن الوطنية تحتاج إلى أسلحة عدة، إذا كانت الشهامة والفضيلة والإقدام أهمها وألزمها، فالحذر والدهاء والتبصر ضرورية لها، بل وحيوية لكل أمة تطلب الحياة أو تريد الزيادة في المجد والسؤدد»[٢٥].

ثم جاء الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ ليقضي على البقية الباقية من آمال مصطفى كامل في أن تلعب أوروبا، وبالذات فرنسا، دوراً يذكر في إجبار انجلترا على الجلاء. . ولقد أدرك يومئذ أن هذا الاتفاق قد حقق «عزلة» الحركة الوطنية المصرية عن الحكومات الأوروبية التي كانت تعطف عليها. .

ذلك هو تاريخ ظهور نغمة اليأس من نصرة الحكومات الأوروبية لمصر في صراعها ضد الاحتلال. . فهل كان ذلك أيضاً هو تاريخ بدء اعتماد مصطفى كامل على الحركة الوطنية

---

(٢٤) المرجع السابق. ص ٤٣٤.

(٢٥) اللواء، في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٠م.

والشعبية داخل مصر؟ وهل كان هذا التحول في موقفه من الحركة الجماهيرية رد فعل لليأس من أوروبا؟؟..

ذلك ما يزعمه خصومه ومتهموه.. ولكن تراثه الفكري ومواقفه العملية تدحض هذا الاتهام..

فقبل حادثة «فاشودة» التي وقعت في ديسمبر سنة ١٨٩٨.. وبالذات في سنة ١٨٩٥ يكتب مصطفى كامل فيقول: «إن البلاد في حاجة لرؤوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة.. ولي أمل أن ينتشر الشعور في البلاد بسرعة، **فإنه وحده رأس مال محرري الأمم والشعوب**، وبدونه لا يستطيع خادم، مهما تكن أمانته وقوته، أن يصل إلى الغرض المرجو» ثم يدعو إلى إنشاء المدارس الوطنية، وتأليف الكتب وإنشاء الصحف «الصادقة في خدمة قطر هو أثمن وأغلى الأقطار..»[٢٦].

وفي مارس سنة ١٨٩٧، أي قبل حادث فاشودة بأكثر من عام ونصف، يدلي بحديث إلى صحفي أمريكي فيبرز دور العامل الداخلي، إلى جانب العامل الخارجي، في انتصار الحركة الوطنية، فيقول: «إننا نبني نجاحنا في عملنا على أمرين:

الأول: خارجي، وهو انتهاز الحوادث الدولية.

والثاني: داخلي، وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين، والتشهير بأخطاء الاحتلال الانجليزي لنرقى بالعقول

---

(٢٦) المؤيد في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٥م.

ونبغض الغاصبين إلى القلوب، وبذلك تقترب الأمة شيئاً فشيئاً من الوطن حتى تلتف حوله وتصير وإياه جسماً واحداً ولا قدرة لأية طائفة من الناس أو أية حكومة مهما كانت قوتها أن تعبث بكيانه أو تفصل أجزاءه»(٢٧).

وفي ٤ يوليو سنة ١٨٩٨ يتحدث عن دور الوطنية المصرية وحدها في هزيمة الاحتلال، عندما يكتب إلى رئيس وزراء انجلترا اللورد سالسبري فيقول: «إن مصر كانت في جميع عصور التاريخ سبب موت الأمم الطاغية، وأنها لا محالة ستكون كذلك في المستقبل، ولا يمكن أن تنجو انجلترا من هذا المصير إذا أصرت على احتلال بلادنا، لأنكم إذا كنتم تعتبرون أن إرادة انجلترا فوق إرادة أوروبا، فإنه لا بد أن يأتي يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على انجلترا العظيمة القادرة»(٢٨).

فمنذ ما قبل حادث «فاشودة» إذن كان وعي مصطفى كامل، الفكري والعملي، بدور الإنسان المصري في تحرير وطنه من الاستعمار، أما الذي أضافه خذلان الحكومات الأوروبية، وخاصة فرنسا، لحركته الوطنية، فهو انعدام ثقته فيها، وصرفه النظر عن الآمال التي علقها من قبل عليها ـ وإن لم يصرف النظر عن دور الرأي العام والعناصر الحرة فيها ـ ومن ثم زيادة تركيزه الجهود في العمل الوطني الداخلي،

---

(٢٧) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٩٤.

(٢٨) المرجع السابق. ص ١٢٠.

وبالذات الإعداد لتكوين وبلورة تيار الوطنية المصرية في حزب سياسي. ففي ٢٩ يوليه سنة ١٩٠١م يسأله مراسل صحيفة «الاكلير» الفرنسية:

- «هل المصريون يائسون الآن من مستقبل بلادهم بعد حادثة فاشودة؟».

فيجيبه: «كلا، إننا لم نيأس، ولن نيأس أبداً من مستقبل الوطن العزيز، فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية، ونعرف أن حظ انجلترا فيها سيكون كحظ الدول المتقدمة عليها، ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا يائسون كل اليأس من أي تعضيد يأتينا من أوروبا، وأصبحنا نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس في أنحائها، حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادىء الوطنية والشهامة، ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة ويربون على الثقة بالمستقبل والإيمان بأن لبلادهم في الأيام الآتية مستقبلاً باهراً ومقاماً عالياً»[٢٩].

ولقد علت هذه النبرة في تراث مصطفى كامل بعد الاتفاق الودي، ونموذج ذلك كلماته في إحدى خطبه بالاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ عندما يقول: لقد «ظن الساسة الانجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة، وخفت كل صوت، ومات كل أمل، وحل اليأس محل الرجاء، وصار الشعب المصري أثراً كتلك الآثار

(٢٩) المرجع السابق. ص ١٥٦.

القديمة التي يأتي السائحون لرؤيتها كل عام. ولكنهم أخطئوا خطأ كبيراً. نعم، أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس في تدبير الشؤون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل. أخطئوا، لأن العزلة التي صرنا إليها بعثت فينا روحاً جديداً أرشدنا إلى الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها، ولا حياة لأمة بغيرها، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها، وهي: **أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها، ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها، وأن الشعب، كالفرد، لا يكون آمناً على نفسه إلا إذا كان قوياً بنفسه مستجمعاً لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة. نعم، فقهنا أن الشعوب التي لا ترجو الرقي إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها، ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها، هي شعوب في خطر، وحياتها مهددة في كل وقت..**»[٣٠].

ثم يعمم هذا الموقف، فيوجه الحديث، بطريق ضمني إلى الدولة العثمانية، ويقول: «إن المسلمين يخدعون أنفسهم كثيراً، ويسيئون إلى بلادهم حقيقة إذا اعتقدوا أن سلامتهم في الاعتماد على دولة من الدول، وأن لهم أن يناموا على وسادة الأمان والاطمئنان إذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلونها.. إنما سلامتهم في أن يعملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام والدستور. فإن البلاء أن يكون الإسلام سلاحاً بيد الجاهل الغبي يقتل باسمه البريء

---

(٣٠) المرجع السابق. ص ٤٨٤.

من المسلمين وغير المسلمين، ويخرب البلاد ويؤذي العباد، قائلاً: «إن هذا من عمل الإسلام!». . إن الإسلام بريء من هذه الفظائع، إن الإسلام يقضي بكل قوة على هذه القبائح، الإسلام والجهل عدوان لا يتفقان، فلا إسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وإنسانية، فلترفع الأمم الإسلامية التي لا تزال قادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالها رايته، ولتعمل عمل اليابان، فتعتمد على الجد وحده، وتطلب الحياة والسؤدد من جهودها ومساعيها، لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة أجنبية، فإن السياسة التي تدفع بهذه الحكومة لمساعدة أمة إسلامية في ساعة من ساعات حياتها قد تتغير بتغير الظروف والأحوال فلا تساعدها في ساعة أخرى. . لو نظم المسلمون بلادهم، وأثبتوا للعالم أن الإسلام دين مدنية وعمران وقوة ورفعة لما اعتدى عليه أحد ولخطب ودهم كل إنسان»[٣١].

ثم يعود فيركز على قضية مصر، ودور الاعتماد على النفس في تحقيق الجلاء عنها، فيقول: إن «الدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية الطاهرة هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعاً أن نجاة مصر لا تكون إلا بهمم المصريين، وأن ارتقاءنا موكول إلى عزائمنا، فلنطلب النهوض من أنفسنا، ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد . .»[٣٢].

---

(٣١) المرجع السابق. ص ٥١١، ٥١٢.

(٣٢) المرجع السابق. ص ٤٩٥.

فمصطفى كامل، كما نرى، داعية للاعتماد على النفس، سواء أكان ذلك قبل حادث «فاشودة» و«الاتفاق الودي»، أو بعدهما. . وإن تكن هذه النبرة قد علت في تراثه مع فقدانه الثقة في مساعدة حكومات أوروبا مصر في حصولها على الاستقلال. . ومن ثم فإن تهمة إهماله العمل الوطني الداخلي بمصر لاعتماده على تركيا، إيماناً بشعار الجامعة الإسلامية ومعطياته، ولاعتماده على الدول الأوروبية. . إن هذه التهمة لا تنهض على أساس متين أو سليم. .

(العلاقة بين مصر وتركيا)

ونحن نعتقد أن الذين اتهموا مصطفى كامل بالسعي من وراء شعار الجامعة الاسلامية إلى إعادة مصر إلى حظيرة الإمبراطورية العثمانية، إنما كانوا يفترون على الرجل افتراء ليس له ما يبرره، حتى لو كان هذا المبرر أنواعاً من الشك أو ضروباً من الأوهام.. ذلك أن فكر مصطفى كامل وعقيدته ونشاطه العملي إنما كانت تصب جميعاً في إقامة ذلك البناء الذي أسهم فيه أكثر من أي معاصر له بناء «القومية المصرية» و«الذاتية المصرية» و«الوطنية المصرية»، وهي كلها أحجار عثرة في سبيل أية محاولة تبذل لإعادة البلاد مرة ثانية إلى حظيرة إمبراطورية آل عثمان..

هذا عن النتيجة الطبيعية التي يفضي إليها، بالقطع والحتم، فكر مصطفى كامل ونشاطه.. وبالطبع فلقد كانت وقائع نضاله تسير في ذات الطريق..

لقد كانت العلاقة القانونية التي تربط مصر بالدولة العثمانية، قبل الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م، علاقة واهية تبرز أساساً في نطاق «الشكل» أكثر مما تتبدى في مضامين جوهرية تحد من الاستقلال الحقيقي للبلاد.. ذلك أن القيود التي فرضتها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م والفرمان الهمايوني الصادر في

١٣ فبراير سنة ١٨٤١ على الاستقلال الحقيقي الذي تحقق لمصر تحت سلطة محمد علي، إن هذه القيود قد زالت بالفرمان الذي صدر من السلطان الغازي عبد العزيز خان لصديقه إسماعيل في ٨ يونيو سنة ١٨٧٣م، والذي نص فيه أن «يكون هذا الفرمان الجديد قائم مقام الفرمانات السابقة» والذي أعطيت فيه مصر الحرية الكاملة في شؤونها الداخلية والخارجية، بما في ذلك عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية «بصورة لا تستلزم إخلال معاهدات الدولة العلية البولتيقية (السياسية)..» كما ألحق هذا الفرمان بحدود مصر ـ فضلاً عن السودان ـ «قائمقاميتي (سواكن) و(مصوع) وملحقاتهما» وأدخل حكم هذه الملحقات في إطار مصر، بحيث يسري عليها نظام توارث العرش الذي حدده هذا الفرمان.. ولم تكن هناك قيود تحد من الاستقلال الحقيقي لمصر، اللهم إلا «الويركو» السنوي البالغ «مائة وخمسين ألف كيسة»، وصدور العملة باسم السلطان، ووحدة أعلام الجيش المصري مع أعلام الجيش العثماني.. وهي قيود تدخل في نطاق الشكل أكثر منها في نطاق الأمور الجوهرية التي تحد من الاستقلال الحقيقي للبلاد..

وبعد ذلك بعامين ـ في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢هـ (يونيه سنة ١٨٧٥م) ـ ألحقت بحدود الخديوية المصرية مدينة (زيلع) وملحقاتها التابعة للواء الحديدة على الشاطىء اليمني للبحر الأحمر!![٣٣].

---

(٣٣) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية). ص ٣٠٤ ـ ٣٠٨.

كانت هذه هي العلاقة القانونية التي تحكم صلات مصر بالعثمانيين.. فحتى الذين كانوا يريدون تحرير مصر من الانجليز كي تعود «ولاية ممتازة» في الإطار العثماني، لا يمكن القول - بموضوعية وجدية - إنهم كانوا يريدون استبدال احتلال باحتلال، لأن مصر لم تكن مستعمرة عثمانية قبل أن يحتلها الانجليز سنة ١٨٨٢م.. فما بالنا ومصطفى كامل - كما سيتضح بعد - لم يكن أبداً من أنصار العودة - أية عودة - إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية؟!.

* إن القرن التاسع عشر، وخاصة نصفه الثاني كان يشهد قمة الزحف الامبريالي على أجزاء الامبراطورية العثمانية، ومن ثم فإن هذه الامبراطورية وسلطانها - رغم تاريخهاالسلبى مع العالم العربي - كانت طرفاً تتناقض مصالحه تناقضاً عدائياً مع الموجة الامبريالية الزاحفة على بلاد الشرق، ومن ثم فلقد كانت الروابط والعلاقات بالدولة العثمانية أحد الأسلحة - بصرف النظر عن مدى فعاليتها - في مناوأة الاستعمار الأوروبي وعرقلة زحفه على البلاد. ولم يكن هذا الأمر خاصاً بمصر، نظراً لأهميتها واهتمام المجتمع الدولي بها، بل كان قانوناً عاماً حكم أحداث ذلك الصراع..

فمثلاً عندما وضحت نيات فرنسا في استعمار تونس والاستيلاء عليها وجدنا أن أحد السبل التي لجأ إليها حكام تونس لعرقلة الغزو الفرنسي هو إعلان ارتباط تونس بالدولة العثمانية ودخولها ضمن امبراطوريتها، وكما يقول محمد فريد: إنه لما بلغ السلطان عبد العزيز: «إن بعض الدول تطمح إلى

الاستيلاء على تونس أراد أن يؤيد حقوق دولته عليها جهاراً، ليرتدع من ينظر إليها بسوء، إذ تصير جزءاً من ممالكه المحروسة التي تعهدت الدول بصيانتها في معاهدة باريس المبرمة سنة ١٨٥٦م» فأصدر السلطان فرماناً يحدد فيه علاقة تونس بالدولة العثمانية في ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧١م[٣٤]، وهو فرمان يعطي لتونس الاستقلال الحقيقي الذي أعطي لمصر في سنة ١٨٧٣م.

* ومن هنا كان حرص مصطفى كامل على العلاقات الحسنة مع الدولة العثمانية، لأنها الطرف الأول، بعد الحركة الوطنية المصرية، صاحب المصلحة في جلاء الانجليز، وبعدها تأتي دول أوروبا التي تتناقض مصالحها مع انفراد انجلترا بحكم البلاد.. ولقد أعلن مصطفى كامل في خريف سنة ١٨٩٦: «إن سياسة مصر نحو الدولة العثمانية، وهي السياسة التي يجري عليها الوطنيون الصادقون، هي سياسة حسن التقرب منها، وتوطيد العلاقات الحسنة معها»[٣٥]. وكانت لديه مبررات كثيرة تقف وراء ذلك الموقف الثابت الذي تبناه:

١ ـ فإنجلترا كانت دائمة السعي، ودائبته أيضاً، كي تقنع تركيا بالتنازل عن سيادتها الاسمية على مصر، وذلك حتى تتخلص من آثار الالتزام القانوني الذي نقضته باحتلالها أرضاً عثمانية تنص معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ على وجوب صيانتها..

---

(٣٤) المصدر السابق. ص ٣٠٨.

(٣٥) الرافعي (مصطفى كامل). ص ٣٦٤.

وهذا الالتزام القانوني هو الذي منع إعلان الحماية على مصر حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م عندما سقط أو أسقط حق تركيا في السيادة بدخولها الحرب إلى جانب الألمان ضد الحلفاء.. ومنذ دخول انجلترا مصر، كان اللورد «دفرين»، مندوبها السامي في مصر، يسعى لشراء حق تركيا في «الجزية» التي تدفعها مصر، وذلك حتى ينقطع هذا الخيط الذي يعرقل سعي انجلترا للكشف عن أهدافها في ضم البلاد والتخلص من تبعات وعودها بالجلاء عنها.

ولقد كان المندوب السامي العثماني في مصر - أحمد مختار باشا الغازي - يسعى جهده لمناوأة الاحتلال الانجليزي، وعندما كان يفشل كان يقول شعاره الشهير: «إنه احتجاج حي على الاحتلال»؟!.. ومن هنا كانت العلاقات الودية بين الحركة الوطنية المصرية والدولة العثمانية استمساكاً بعلاقة قانونية تعرقل ضم مصر لأملاك بريطانيا، وفي ذات الوقت لا تمثل أي قيد على حرية مصر واستقلالها بعد تحقيق الجلاء..

٢ - أن مصطفى كامل كان يدرك أن الصراع بين السلطة في مصر وبين السلطان العثماني قد استغلته انجلترا في تحقيق احتلالها للبلاد سنة ١٨٨٢م فهم قد أوقعوا بين الخديو توفيق وبين السلطان، وعندما توجس توفيق خيفة من علاقة عرابي بالسلطان ارتمى في أحضان الانجليز.. كان مصطفى كامل يدرك أبعاد هذه اللعبة الاستعمارية وأهدافها، ويعي أن الصراع يجب أن يكون ضد قوات الاحتلال، وفي ذلك يقول: «إن التاريخ يعلمنا... أنه إذا كان الانجليز قد احتلوا مصر فالسبب

في ذلك ولا شك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا، وقد نجح الانجليز في التفريق بينهما، باتباع سياسة ذات وجهين، فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدو له، يعمل لإسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه، كما سعى لذلك من قبل جده الأكبر (محمد علي)، وأفهموا توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده، ويسعى لخلعه عن كرسي الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية، كما كانت قبل الأسرة الخديوية، فلما قامت الحركة العرابية رأى الانجليز من تمام المهارة، وتوسيعاً لهوة الشقاق أن يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له، فسعوا عند السلطان سعي الصديق حتى حملوه على تقليد عرابي الوسام العثماني الأول، وعرابي هو الذي كان يدعي يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان في مصر، وقد أوغر هذا صدر توفيق باشا وألقاه في أحضان الانجليز. . . إن سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية هي السياسة التي في اتباعها سلامة الكرسي الخديوي والوطن المصري. .»[٣٦].

٣ ـ في سنة ١٨٩٧م قامت الحرب اليونانية التركية، ووقفت أوروبا تناصر اليونان، لا من موقع المدافع عن الحرية والاستقلال فقط، وإنما بمشاعر الحروب الصليبية والعداء للشرق والشرقيين. . وكانت القوى المناصرة للانجليز واحتلالهم لمصر تتعاطف مع اليونان ضد تركيا. . ولكن

---

(٣٦) المرجع السابق. ص ٣٦٤، ٣٦٥.

مصطفى كامل والحركة الوطنية أعلنا تعاطفهما مع تركيا، وجمعت الاكتتابات للجيش العثماني في حركة جماهيرية واسعة. . ولم يكن مصطفى كامل يناصر بموقفه ذلك استعمار تركيا ضد حرية اليونان، بقدر ما كان يريد الاستفادة من هذه الأزمة كي يجعل ملف القضية المصرية يفتح من جديد، فإذا كانت أوروبا تريد جلاء تركيا عن اليونان، فلتطلب، مقابل ذلك، جلاء الانجليز عن مصر! ولقد كتب العديد من المقالات، وألقى الخطب، وكتب الرسائل التي جعلت الكثيرين من أحرار أوروبا ـ وهم الذين يناصرون اليونان ضد تركيا ـ يقتنعون بوجهة نظره، بل لقد امتد عمله الجماهيري إلى الجاليات الأجنبية في مصر ـ ومنهم الجالية اليونانية ـ حتى اقتنعت بوجهة نظره وحكمتها. . ونحن نرى أن موقفه السياسي هذا إنما يقدم نموذجاً للنضج السياسي الذي يدرك صاحبه أصول «لعبة» التوازن والصراع في الساحة الدولية إلى حد كبير. . يقول مصطفى كامل في شرح موقفه من هذه القضية:

«**إن أهم معنى سياسي لاكتتاب المصريين لإعانة الجيش العثماني هو القيام بتظاهرة من الأمة بأسرها ضد الاحتلال الانجليزي**، فإن المصريين يعلمون علم اليقين أن كل دسائس انجلترا في الشرق ترمي إلى امتلاك وادي النيل، وأن الانجليز لما لم يستطيعوا استمالة السلطان إليهم ضد مصر والخديو، أخذوا يعملون لتقسيم الدولة العثمانية، آملين أخذ مصر وبلاد العرب، وإعلان سيطرتهم على الإسلام كله، وسواس أوروبا لا يجهلون مطلقاً أنه يصبح من العسير علينا حل المسألة المصرية

إذا اتفقت تركيا مع الانجليز على احتلالهم وادي النيل..[37]. أنه وإن كان المصري لا يعرف إلا وطناً واحداً، وهو مصر، فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة، ويظهروا بذلك امتنانهم لها، لأنها لم ترد أن تكون آلة في يد الانجليز...[38]. إن تظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي تظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزي، واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش العثماني هو اقتراع عام ضد الانجليز في مصر... نحن نسأل الذين ينتقدون اكتتابنا للدولة العلية: لماذا غير الانجليز سياستهم نحو تركيا من سنة ١٨٩٣؟ لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها، بعد أن كانوا يعلنون للملأ كله أنهم أصدقاؤها وأحباء السلطان؟ أليس ذلك لأن السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد أميرها؟ أليس لأنه قدر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها؟؟.. هبوا أن لا علاقة بين مصر والدولة العلية غير العلائق العادية بين الأمم، أليس من واجباتنا الوطنية أن نعترف بالجميل لدولة رفضت القضاء على حياتنا ومساعدة أعدائنا ضدنا؟![39]. إننا بسرورنا واحتفالاتنا بالانتصارات التركية نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الانكليزية، أي بأجل وأبهى شيء يتمناه

---

(٣٧) المرجع السابق. ص ٩٨، ٩٩. (من تصريح لجريدة (برلنر موست نخرختن) الألمانية).

(٣٨) المرجع السابق. ص ٩٨. (من تصريح لجريدة (برلنرتا جبلاط).

(٣٩) المرجع السابق. ص ١٠٠ (من خطبة ألقاها بالاسكندرية في ٧ يونيو سنة ١٨٩٧م).

كل مصري وطني على الدوام!»[٤٠].

وفي ١٢ مايو سنة ١٨٩٧م أرسل مصطفى كامل برقية يهنىء فيها السلطان بعيد الأضحى، وبانتصارات الجيش العثماني، و«أعرب فيها عن رجائه أن يشترط السلطان على دول أوروبا لعقد الصلح جلاء الانجليز عن مصر مقابل جلاء الجيش العثماني عن اليونان!». وفي ٧ يونيه من نفس العام اتخذت الجماهير التي خطب فيها بالاسكندرية قراراً سياسياً بهذا المعنى، يطلب الربط بين انسحاب اليونان من تركيا وجلاء الانجليز عن مصر..[٤١].

وفي ١٢ يونيه من نفس العام يكتب إلى مدام جوليبت آدم يحدثها عن موقفه هذا فيقول: «إنك تعلمين خطتي نحو تركيا، وما أراه واجبا نحوها، فقد افصحت عن ذلك في خطبتي - (في ٧ يونيه) - واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز»[٤٢].

فمصر إذن هي شغله الشاغل، والعلاقة بتركيا والنضال تحت شعار الجامعة الإسلامية، إنما الهدف منهما عرقلة سير المخطط الانجليزي الرامي إلى ضم مصر وتكريس احتلالها،

---

(٤٠) المرجع السابق. ص ١١٣. (من مقال كتبه في صحيفة (فوسيشة ريتنغ) الألمانية في ٥ يونيو أكتوبر سنة ١٨٩٧م).

(٤١) المرجع السابق. ص ٩٩، ١٠٠، ١٠٢.

(٤٢) المرجع السابق. ص ١٠٣.

وأيضاً العمل على كسب تركيا أكثر وأكثر في مناوأة استمرار الاحتلال الانجليزي للبلاد - فالمصري - كما يقول مصطفى كامل - لا يعرف له إلا وطناً واحداً، وهو مصر؟!

٤ - وفي سنة ١٨٩٨م أرادت انجلترا بيع السكك الحديدية في السودان إلى شركة بريطانية، تحت ستار الحاجة إلى الأموال اللازمة للإنفاق على حملة السودان.. فاعترض الخديو عباس الثاني،.. ولكن كرومر أصر على تنفيذ الصفقة الاستعمارية المشبوهة.. وعندئذ وجدت مصر في العلاقة القانونية التي تربطها بتركيا سنداً لها في موقفها ضد هذا المشروع الانجليزي الذي يمهد لسيطرتهم على السودان فاستعانت مصر بالدولة العثمانية كي تتدخل في الأمر. وجاء جواب السلطان مؤيداً لموقف مصر، حيث إن «السكك الحديدية أنشئت للجيش، وأن بيعها مخالف للسيادة التركية»[٤٣] فتراجع اللورد كرومر ولم تتم الصفقة... وكان هذا الموقف نموذجاً لحسن استخدام العلاقة مع تركيا في عرقلة نفوذ الانجليز ومشاريعهم في وادي النيل.

٥ - وعندما عقدت اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩م، تلك الاتفاقية التي ظاهرها مشاركة انجلترا لمصر في حكم السودان، وباطنها انفراد الانجليز باستعماره، رأى مصطفى كامل في العلاقة مع تركيا السند القانوني لبطلان هذه الاتفاقية، فكتب يقول: «إن اتفاقية السودان المزعومة بين مصر

---

(٤٣) المرجع السابق. ص ٣٣٣، ٣٣٤.

وانجلترا قد جاءت برهاناً جديداً على عدم مراعاة انجلترا للعهود والمؤتمرات، الشيء الذي يعتبره المصريون جميعاً باطلاً، لأنه مخالف للنظامات الأوروبية والقوانين الدولية. فإنه، أولاً: **ليس لحكومة مصر أي حق في عقد اتفاقية كهذه الاتفاقية، لأنها تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة إلى خديو مصر.. إن نصوص الفرمانات صريحة في أن ليس لمصر الحق في التنازل أو استبعاد أي جزء من أجزائها عنها بإرادتها**.. إننا ننتظر أن تعضد أوروبا الحكومة العثمانية التي لا بد أن تحتج احتجاجاً شديداً على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة...»[44].

ولقد ظل هذا المنطق الذي حكم به مصطفى كامل ببطلان اتفاقية السودان، ظل هو منطق الحركة الوطنية المصرية حتى بعد وفاته بسنوات طويلة، وحتى «الوفد المصري» الذي تألف في نهاية سنة ١٩١٨م كانت حجته على بطلان هذه الاتفاقية أن الحكومة المصرية التي عقدتها ـ وهي حكومة مصطفى فهمي العميلة للانجليز ـ ما كان في اختصاصها أن تعقد مثل هذه الاتفاقية التي تنازلت فيها عن حقوق هي من صلب السيادة العثمانية على تلك البلاد..

٦ ـ وفي سنة ١٩٠٦م أرادت تركيا أن تمد خطاً حديدياً يربط بين «معان» و«العقبة»، ورأى الانجليز أن امتداد هذا الخط

---

(٤٤) المرجع السابق. ص ١٣٨، ١٣٩ (من مقال في صحيفة (الجولوا) الفرنسية في ٦ فبراير سنة ١٨٩٩م).

على حدود مصر الشرقية يقوي من مركز العثمانيين، فأقام الانجليز نقطاً عسكرية على خط «العريش ـ العقبة»، واحتل الأتراك موقع «طابة» غربي «تبة» العقبة بثمانية أميال، وحدث نزاع بين الدولتين، رأت انجلترا أن تظهر فيه بمظهر المحامي عن حدود مصر وأراضيها، ورأى العثمانيون فيه إثارة قضية علاقتهم القانونية بمصر، وعدم شرعية الاحتلال الانجليزي لها، ورأى فيه مصطفى كامل مناسبة لفتح ملف القضية المصرية من جديد.. فناصر موقف تركيا وطالب الانجليز بالجلاء.. وهاجم الذين يدعون إلى الابتعاد عن تركيا، قائلاً: «إن اتفاقنا مع تركيا كان دائماً أساساً من أسس سياستنا... وإني أسأل الذين ينكرون هذه الحقيقة أن يفكروا لحظة فيما يؤول إليه حال مصر لو عقدت تركيا في يوم من الأيام اتفاقاً مع انجلترا مشابهاً للاتفاق الودي الفرنسي ـ الانجليزي؟ ألا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها؟ فكيف مع هذا يندهش البعض من الروابط التي تربط مصر بتركيا؟ أوليس هذا الارتباط في ذاته أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال بغير حق؟ إني أسأل الذين لا يكتفون بانتقاد سياستنا، بل يتحاملون علينا، أن يجيبوني: لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع روسيا، واتفاقها مع انجلترا، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقة اتفاقنا مع تركيا؟!»[٤٥].

---

(٤٥) المرجع السابق، ص ٣٦٦، ٣٦٧ (من مقال في صحيفة (الطان) الفرنسية في ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦م).

فهي مصلحة مصر إذن التي تقضي بإقامة العلاقات الحسنة بين مصر وتركيا، وشعار الجامعة الإسلامية لم يكن يعني عند مصطفى كامل العمل على إعادة مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية، كما زعم خصومه ومتهموه، بل إن الرجل يحسم القول في نوع هذه العلاقة الحسنة المنشودة، فيقول إنها «المحالفة»، لا «التبعية»، وذلك عندما يخطب في ذكرى تأسيس الدولة العثمانية في ٢٧ يناير سنة ١٩٠٧ فيقول: **«يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكاً أجنبياً عنا، فنحن لا نود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية، ننصرها وتنصرنا، ونعتز بها وتعتز بنا..»**[٤٦].

فهو إذن داعية للاستقلال المصري التام.. ولم يكن شعار الجامعة الإسلامية عنده يعني العمل على استبدال نير العثمانيين بنير الانجليز..

(٤٦) المرجع السابق. ص ٣٦٧.

(بين فكر مصطفى كامل

وفكر الدولة العثمانية)

الأمر المؤكد، والذي نحرص على إبرازه وتدعيمه بالأدلة والبراهين، هو أن مضمون شعار الجامعة الإسلامية عند مصطفى كامل لم يكن هو مضمون هذا الشعار عند السلطان عبد الحميد وغيره من العثمانيين ودعاة التبعية لسلطنة آل عثمان.. ذلك أن مضمون هذا الشعار كما كان يعنيه العثمانيون ويهدفون إليه كان يعني معارضة حركات الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية، سواء أكان الدافع إليها والمحرك لها طموحاً شخصياً للولاة الذين يقومون بها أو سمات قومية قد أخذت في التبلور والنضوج لدى الأمم والأقطار التي تشرع في الاستقلال والانفصال.. ومن هذا المنطلق كان شعار الجامعة الإسلامية، بمضمونه العثماني، يعني الرفض لتلك التجربة التي قاد بها محمد علي باشا مصر في طريق الاستقلال عن التبعية المباشرة للامبراطورية العثمانية.. كما كان يعني كذلك السعي لخفض صوت العقيدة الوطنية والروح القومية لحساب الروابط الدينية التي تجمع شعوب الامبراطورية المتعددة الأجناس، والتي لا يربطها بحكامها سوى رباط الدين - فإذا كانت دعوة مصطفى كامل وأفكاره ونشاطه العملي قد انصب بشكل كلي

وأساسي على السعي لاستقلال مصر التام، والتمجيد لتجربة محمد علي الاستقلالية، وكذلك السعي لغرس العقيدة الوطنية المصرية والقومية المصرية في عقول الشعب المصري ووجدانه... إذا كانت دعوة مصطفى كامل ونشاطه، بل وحياته، إنما كانت تجسيداً لدعوة الاستقلال والوطنية والقومية، فإن الطريق الذي سار فيه هو، بالتأكيد، غير طريق العثمانية والعثمانيين، ومن ثم فإن مضمون شعار الجامعة الإسلامية عنده هو، بالتأكيد، مغاير، بل مناقض، من هذه الزاوية الاستراتيجية، لمضمون هذا الشعار لدى العثمانيين.. فالاتفاق هنا لا يتعدى الاتفاق في «تكتيك» المواجهة المشتركة ضد الاستعمار الأوروبي، عدوهما المشترك، أما بعد ذلك فإن مصطفى كامل باعث الروح الوطنية والقومية، بينما الفلسفة التي تقوم عليها الدولة العثمانية هي استبدال العقيدة الدينية بالرابطة الوطنية والرابطة القومية.. ومن هنا نستطيع أن نقول: إن مضمون شعار الجامعة الإسلامية عند مصطفى كامل لم يكن فقط مناقضاً لمضمونه لدى العثمانيين، بل وكان مضمونه عنده أكثر تقدماً ومسايرة لروح العصر، عصر القوميات، منه عند التيار الذي مثله وقاده جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده..

أما الدلائل التي تؤكد أن دعوة مصطفى كامل وأفكاره ونشاطه العملي إنما كانت في إطار العقيدة الوطنية والبعث القومي والعمل لبلورة قسمات الأمة المصرية.. فإنها كثيرة جداً، تطالعنا في كل لحظة من لحظات حياته، وصفحة من صفحات نضاله.. وهذه بعض الأمثلة ذات الدلالة في هذا المقام:

١ ـ تقييم تجربة محمد علي الاستقلالية

في الوقت الذي كان فيه الحديث عن تجربة مصر الاستقلالية في عهد محمد علي يثير حفيظة دعاة الجامعة الإسلامية، بمفهومها العثماني، بل ويوغر صدور سلاطين آل عثمان ضد حكام مصر، كان تقييم مصطفى كامل لهذه التجربة تقييم المدرك لأبعادها القومية ودورها في تقدم مصر قومياً وحضارياً، فلقد كان يتخذ منها نموذجاً يدعو لاحتذائه، ويفضل هذا النموذج لا على الوضع الذي انتهت إليه مصر في ظل الاحتلال الانجليزي، بل ويفضله كذلك على وضعها السابق على حكم محمد علي لها، عندما كانت ولاية تابعة لآل عثمان!! . . فهو يرى أن محمد علي قد أسهم إسهاماً بارزاً في بناء وحدة مصر القومية عندما «جمع شملها، بعد أن كانت مفرقة موزعة على المماليك. . **فصارت وطناً واحداً لأمة واحدة يجمعها لواء واحد**»[٤٧] ثم يمضي ليفصل في أوجه الحياة المصرية مقارناً بين عهدها العثماني وعهدها الذي استقلت فيه زمن محمد علي، فيقول: «ارجعوا البصر كرة أخرى إلى مصر قبل عصر محمد علي، وقارنوا بين حالها في ذلك الحين وما صار إليه في عهده، تجدوا أرضاً بلقعاً تحولت إلى رياض وجنان، وفضاء واسعاً صار فيه الألوف والملايين يحرثون الأرض ويزرعون ويستثمرون، وشقاء تولى ونعيماً أقام،

---

(٤٧) المرجع السابق. ص ٤٧٢. (من خطبة له في ذكرى اختيار الشعب المصري محمد علي حاكماً لمصر ـ ٢١ مايو سنة ١٩٠٢م).

وفوضى زالت وأمناً استتب، وزراعات جديدة دخلت إلى البلاد فأحيتها وأنمت ثروتها وملأت نواحيها رغداً وسعداً. . . انظروا كيف سار محمد علي بمصر، وكيف أنقذها من مهاوي الهلاك، وكيف أخرجها من عالم الظلمات إلى النور، وكيف فتح بها وضرب وغلب، وكيف ساد ولم يُسَد، وكيف ملأ من جنودها الديار، وأخضع لسلطانها البحار والأنهار، وكيف رفع ذكرها إلى أعلى منار، وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار، وكيف أبهج هذا الثغر بتزاحم الجواري في ثغره؟! وعمم المعامل والمصانع في المدن والقرى، ونشر المدارس والمكاتب في أنحاء البلاد، وأخرج من أبنائها نجوم علم يهتدى بهم ولا يضل بنورهم؟ . .».

ثم يمضي للحديث عن دور العنصر الوطني المصري في هذه النهضة القومية المصرية فيتساءل: «هل استعان محمد علي بغير المصري على تحقيق غاياته؟ . . كلا! لم يصل إلى ذروة المعالي وأقصى غايات الرجال إلا بعقلك وبأسك أيها المصري العزيز. . السر في هذا الانقلاب وذلك التغير أن الرجل العظيم الذي تولى أمر مصر أدرك بواسع عقله أن في أمتها كنوزاً من الشهامة والذكاء مدفونة فكشف عنها الغطاء، وأظهرها للعالمين ساطعة بهية تخطف الأبصار. !»[٤٨].

وبالتأكيد فإن هذا التقييم لتجربة محمد علي الاستقلالية لم يكن ليتفق مع الموقف العثماني من هذا الحدث الذي

(٤٨) المرجع السابق. ص ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠.

شهدته مصر في مطلع القرن الماضي، والذي بدأت به عصرها الحديث . .

٢ ـ دور مصر التاريخي

وحديث مصطفى كامل عن دور مصر الرائد والقائد والمتميز على مر العصور والتاريخ، هو بالتأكيد لا ينسجم مع الموقف العثماني الذي يعطي القيادة للعنصر التركي، ويجعل من مصر وكل أجزاء الامبراطورية مجرد توابع للعثمانيين.

فعنده «إننا نطلب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان في الشرق كله» . . وعنده إن «الأمة المصرية قد سبقت كافة الأمم في العلم والمدنية والأدب، وكان شعبها أستاذ الشعوب البشرية ومربي العالم كله» . . وعنده إن «مصر هي مهد المدنية والنور، ومصدر كل تقدم إنساني، إننا الوارثون لمدنيتين كبيرتين: المدنية الفرعونية والمدنية العربية، فمن حقوقنا ومن واجباتنا أن نجلس بين الأمم المتمدنة، ونطالب بحقنا في هذه المدنية.»[٤٩].

فنحن هنا بإزاء شحنات من الروح الوطنية والمجد القومي، تتحدث عن الأمة المصرية حديثاً يتناقض مع الغايات العثمانية من وراء شعار الجامعة الإسلامية الذي أرادوه نفياً للوطنية والقومية من أقطار الامبراطورية وولاياتها.

---

(٤٩) المرجع السابق. ص ٥٠٧، ٤٣٢، ٢٤٥.

٣ ـ مصر للمصريين

ومصر هذه صاحبة الدور الرائد المتميز عبر التاريخ، ناضل مصطفى كامل حتى تكون للمصريين من أهلها، لا لأي حاكم أجنبي عنها، مهما كانت بينه وبين أهلها من روابط أو علاقات.. فعلى العكس من مفهوم شعار الجامعة الإسلامية عند العثمانيين، الذي كان يعني فرض سلطتهم على كل أجزاء العالم الإسلامي، ومنه مصر، وعلى عكس مفهوم هذا الشعار كما عبرت عنه (العروة الوثقى) عندما تحدثت عن قبول المغربي لسلطة التركي، والهندي لرياسة الأفغاني، والفارسي لحكومة العربي.. الخ.. الخ.. لوجود رابطة الدين والمعتقد بينهم.. على عكس هذا المفهوم لهذا الشعار نجد أن مصطفى كامل قد أعلن في وضوح وحسم أن مصر للمصريين، وأن المصريين لمصر، وأن شعار الجامعة الإسلامية لا يمكن أن يعدو نطاق التضامن والتحالف ضد الاستعمار إلى نطاق التبعية أو القبول بسلطة غير مصرية على أرض مصر، أو استبدال النير العثماني بالنير الانجليزي، ذلك لأن «سلاسل الاستعباد هي سلاسل على كل حال، سواء كانت من ذهب أو من حديد!!»(٥٠).

فعنده أن العلاقة التي أقامها العثمانيون بمصر قبل استقلالها على يد محمد علي هي «احتلال»، وأن مصر لا تريد أن تستبدل احتلالاً باحتلال، ذلك «**لأننا نبغض المحتل من حيث**

---

(٥٠) المرجع السابق. ص ٤٣٠ (من رسالة بعث بها مصطفى كامل إلى رئيس الوزراء الانجليزي هنري كامبل باترمان سنة ١٩٠٧م).

هو محتل، ولو كان **أقرب الناس إلينا**، لأننا أمة حية متمدنة، **نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا** ولا نرضى أن نبقى قصراً تحت حكم وصي ننظر إلى تقدم الأمم الأخرى نظرة الكئيب التعيس دون أن نستطيع محاكاتها ومجاراتها»[51].

وعندما يتهمه الانجليز - في مجلة «الديلي جرافيك» - بالسعي لاستبدال النير العثماني بالنير الانجليزي يرد في نفس المجلة بمقال عنوانه (مصر للمصريين) - ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٦ م - يقول فيه: «**إننا نريد أن تكون مصر للمصريين، ونرفض قطعياً كل نير أجنبي**، وإن الذين يظنون أن الشعب المصري يمقت انجلترا لأنها دولة مسيحية ليسوا إلا مخطئين خطأ جسيماً، فإن الشعب المصري يمقت المحتل الذي قوض دعائم استقلال وطنه، وإذا كانت مصر محتلة بأي دولة أخرى لكان شعور المصريين هو ذاته، لأن ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأي حال من الأحوال..»[52].

وفي ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧م يكتب إلى رئيس وزراء انجلترا، السير هنري كامبل بانرمان، يقول: «لعل دروس التاريخ لا تكفي في نظر أنصار التوسع في الاستعمار من الانجليز لأن تثبت لهم **أنه لا يمكن أن يملك مصر أحد سوى المصريين**، إلا أن يقظة الأمة المصرية من شأنها أن تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال»[53].

---

(٥١) المرجع السابق، ص ٤٥٦ (من خطبة له بالاسكندرية في ٣ مارس سنة ١٨٩٦م).

(٥٢) المرجع السابق. ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٥٣) المرجع السابق. ص ٢٥٤.

وفي ٦ أكتوبر من نفس العام يكتب ليرد على أحد محرري صحيفة (لاند بندنس بلنج)، فيقول: «إن المحرر أخطأ كثيراً بقوله: إننا نريد حرية مصر لإعادتها إلى حكم الأتراك. **فقد صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين، وبأن انعطافنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئاً على هذا المبدأ الرئيسي لحياتنا وأعمالنا**. . ولست أجد لإفحام خصومي إلا طرح هذا السؤال البسيط عليهم. . ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا؟ أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية ـ الانجليزية؟ ألا تصير ولاية انجليزية؟ إذن، فلماذا يندهش الكاتب من كوننا نجعل علائقنا مع تركيا حسنة، ونسعى لنيل الوسائل التي قد تفيدنا وتنفعنا؟ وإذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف، فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة اتباعها لهذه الخطة؟؟»[٥٤].

ثم يعرض لنفس القضية مرة أخرى في خطابه بالاسكندرية ـ ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م ـ فيقول: «رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الانجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية، أي أننا نريد تغيير الحاكمين، لا طلب الاستقلال والحكم الذاتي، وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التي نقلت إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكاً بالعبودية والمذلة، وأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء! فهذه التهمة هي سبة للمدنية والمتمدنين،

---

(٥٤) (اللواء) في ٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧م.

وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبداً ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نير محل نير، واستبدال استعباد باستعباد، فكيف يطمع طامع في تقدمها وارتقائها ووجود ضمير أهلي ـ (وطني) ـ لها؟!. إن القائلين بذلك يدعون الناس لأن يسخروا من عقولهم ومداركهم، لأن الصومالي الحبشي وكافة الأمم التي هي دون الأمة المصرية بمراحل في العلم والأدب والشعور دافعت عن استقلالها أجمل دفاع، وبرهنت للعالم طرّاً أن حب الوطن فطرة فطر الناس عليها، وأن الإنسان لا يحتاج إلى علم ولا إلى أدب ليشعر بهذا الشعور.

فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال، ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون. وإذا كانت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية، وتغير سياستها نحوها تغييراً محسوساً، فمن الذي يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولاً وفعلاً، وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا؟!»[٥٥].

هكذا رأى مصطفى كامل دور مصر، وهكذا رفع، دائماً وأبداً، شعار (مصر للمصريين):، ولم يكن شعار الجامعة الإسلامية يعني عنده الخروج من نطاق التضامن والتحالف

---

(٥٥) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٥٠٨، ٥٠٩.

السياسي مع العثمانيين ضد الاستعمار الانجليزي إلى نطاق العودة بمصر إلى حظيرة الدولة العثمانية بأي حال من الأحوال.. فهو رائد للحركة الوطنية، ومفجر للأحاسيس القومية، ودوره في بلورة قسمات الأمة المصرية الحديثة دور رائد وعظيم بكل المقاييس، ولقد أبصر ذلك الجانب من فكره ونشاطه بعض الذين كتبوا عنه وعن عصره عندما وصفوه بأنه **«كان ناشراً مقداماً، من الطراز الأول، لدعوة العصبية الجنسية ـ (القومية) ـ لا يني له عزم ولا يفل له حزم.. كان لا نظير له في العصبية الجنسية ـ (القومية ـ المصرية!!»**[٥٦].

ومن هنا أيضاً كانت دقة ذلك الوصف الذي وصفته به صحيفة «الديبا» الفرنسية عندما قالت عنه: «إنه هو الذي أنشأ الروح المصرية من العدم، لم تكن مصر قبله إلا قسماً من الأقسام الجغرافية، ولم يكن سكانها إلا فرقاً منقسمين بعوامل الجنس والدين.. لقد تولى محمد علي شؤون مصر... فتمكن من إنشاء جنسية ـ (قومية) ـ مصرية ممتازة عن الجنسية العثمانية، ولكنه لم ينشىء أمة مصرية.. لقد أنشأ مصطفى كامل الوطن المصري، فهو بذلك قد أتم أشرف عمل أدبي يخلد له الذكر الحسن على مر الأجيال، وأضاف إلى هذا العمل الأدبي عملاً سياسياً، وهو السعي في تحرير مصر من رق الاحتلال الانجليزي وجعلها أهلاً لهذا التحرير»[٥٧].

---

(٥٦) (حاضر العالم الإسلامي) مجلد ٢ جـ ٤ ص ٩٥.

(٥٧) -الرافعي (مصطفى كامل) ص ٤٤٦ (عن مقال صحيفة «الديبا» في أبريل سنة ١٩٠٨م).

فهل بعد ذلك يجوز اتهام الرجل الذي اكتملت على يديه نشأة الأمة المصرية الحديثة بأنه كان داعية لطمس معالم هذه الأمة المتميزة بالعودة بها إلى حظيرة دولة آل عثمان تحت شعار الجامعة الإسلامية؟! إن مصطفى كامل هو آخر من يوجه إليه هذا الاتهام..!

٤ ـ عقيدة الوطنية المصرية

وفكرة «الوطنية المصرية» التي ألح على إبرازها مصطفى كامل، واتخذ منها عقيدة ناضل لغرسها في عقول الشعب ووجدانه، ورأى فيها الخيوط التي لا تبلى، والتي يستطيع الشعب بواسطتها أن يقترب من الوطن ويتحد به ويدافع عنه وينقذه من براثن الاحتلال.. فكرة «الوطنية المصرية» هذه قد لعبت، على يد مصطفى كامل، أبرز الأدوار في بلورة قسمات الأمة وتوحيدها، فإذا علمنا أن الرجل قد اتخذ منها حجر الأساس في دعوته ونشاطه، وأنها كانت لديه الفكرة المحورية التي يدور حولها في كل ما يصدر عنه، وأنه قد جعلها العقيدة والأيديولوجية للتيار السياسي الذي كونه وبلوره، إذا علمنا ذلك، وعينا دوره كمفكر من مفكري البعث القومي، وأدركنا مدى التناقض الموضوعي بينه وبين مفهوم الجامعة الإسلامية عند العثمانيين وغيرهم من الذين رأوا في وحدة العقيدة الدينية البديل الإسلامي للقومية والارتباط بوطن معين من أوطان المسلمين.

ولما كانت الفترة الزمنية التي ظهر فيها مصطفى كامل قد تميزت بذلك اليأس القاتل الذي أطبق على الأمة المصرية، بل

والشرق بأجمعه، بعد الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م، فلقد استدعت متطلبات اليقظة الوطنية والقومية من رائدها مصطفى كامل ألا يغفل الحديث عن الوطنية في محفل من المحافل، أو مقال من المقالات، أو لحظة من اللحظات.. ومن كلماته، في الوطنية، التي بلغت في العمق والشاعرية مستوى أجود الشعر لأعظم الشعراء نجد الكثير من العبارات والصياغات التي تركز على **أن الوطنية هي العقيدة التي دعا** المصريين إلى اعتناقها.. فهو القائل:

«إنني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة؟!... إنني أجد حياتي في هذه **العقيدة الوطنية**، وبغير **هذه الشعلة الوطنية** لا أستطيع الحياة... إنني لا أترك لحظة تمر من حياتي دون أن أغرس حب مصرنا العزيزة في قلوب مواطني... إن روحي تتغذى من **حب الوطن**، وبغيره لا أستطيع الحياة.. وما دامت **هذه الشعلة الوطنية** تغذيني وتؤازرني فإني لا أهاب شيئاً ولا أحداً في الوجود... **الوطنية**: هي العماد لكل مملكة، والأساس المتين لكل دولة، هي الروح العاملة في كل بلاد العالم المتمدن، **الوطنية**: هي أم المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء، **الوطنية**: هي التي تنقل الشعب الجبلي إلى الحضارة والعمران والاقتدار وسمو القدر في قليل من الأعوام، **الوطنية**: هي الدم في عروق الأمم، والحياة لكل ذي حياة، **الوطنية**: هي الغذاء الذي يحتاج إليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء.. لا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد إلا **بقوة العقيدة الوطنية**... يجب أن نكون خدام **العقيدة**

الوطنية. . . إن إدخال **الروح الوطنية** في نفوس المصريين. . لهو أكبر الأعمال. . . إن مصر جديرة بأن تحب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة!!»[٥٨].

وإذا كان الذين يؤرخون لتبلور الوطنية المصرية وقسمات الأمة المصرية الحديثة يضعون فكر المرحوم الأستاذ أحمد لطفي السيد [١٨٧٢ ـ ١٩٦٣م] بالمكان الممتاز في هذا الحقل من حقول الفكر، فإن كلمات لطفي السيد عن مصطفى كامل خير شهادة على دوره في بلورة حركة «الوطنية المصرية» التي ارتكزت عليها النشأة الحديثة للأمة المصرية. . يقول لطفي السيد: «إن مصطفى كامل كان شعاره: **الوطنية**، ووسيلته: **الوطنية**، وغرضه: **الوطنية**، وكلماته: **الوطنية**، وكتاباته: **الوطنية**، وحياته: **الوطنية**. . حتى لبسها ولبسته، فصار بينهما التلازم الذهني والعرفي، فإذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطري **الوطنية**، وإذا قلت: **الوطنية**، فإن أول ما يتمثل في خيالك شخص مصطفى كامل، فكأنما هو والوطنية شيء واحد. . . إن مصطفى كامل كان **تمثال الوطنية**. . . إن مصطفى كامل كان مصرياً لجميع المصريين. . !»[٥٩].

وعنه قالت مدام جولييت آدم: «إنه جدير بلقب **«الوطني»** الذي أسبغته عليه أمته في كل شيء: **الخطيب الوطني**، **ورئيس الحزب الوطني**. . لقد كان يقول: إن هذا اللقب يحييني بحياة

---

(٥٨) المرجع السابق. ص ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٩، ٤٨١، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٦، ٤٨٩.

(٥٩) المرجع السابق. ص ٤٤٤.

بلادي كلها، وهو جزائي الأعظم؟!»[٦٠].

فأين من هذا الفكر الذي اتخذ من «الوطنية المصرية» عقيدة صارت هي المحور والأساس والغاية والوسيلة، أين منه ذلك الفكر الآخر الذي تمثل في المضمون العثماني لشعار الجامعة الإسلامية، والذي كان يناصب الفكر الوطني والقومي العداء؟!

٥ ـ بين الوطنية والدين

وإذا كان هذا هو مبلغ الوضوح والحسم اللذين تميز بهما فكر مصطفى كامل عن «الوطنية المصرية»، فإن خصومه قد وجدوا لأنفسهم شبهة تعلقوا بها وقالوا: إنه يخلط الوطنية بالدين، وإن إيمانه بشعار الجامعة الإسلامية قد جعل حديثه، في الغالب، عن المسلمين فقط، وإنه يدعو إلى إدخال الدين في التعليم.. قالوا ذلك، واتخذوا منه سبيلاً للطعن في وطنيته.. أما نحن فإننا لا نرى لهذه الشبهة أساساً متيناً تنهض عليه وتثبت من فوقه في البحث والتمحيص.. ذلك أننا نعتقد أن «الوطنية المصرية» كانت هي «العقيدة» التي بشر بها مصطفى كامل، وليست «العقيدة الدينية الإسلامية»، وإن دعوته إنما كانت لمصر بكل من فيها بصرف النظر عن اختلاف المذاهب والأديان..

فهو لم يخلط الدين بالوطنية، بالمعنى الذي نراه عند دعاة

---

(٦٠) المرجع السابق. ص ٤٤٦.

«الحكم الديني» وأنصار «الحق الإلهي»، سواء منهم أولئك الذين عاشوا في العصور الوسطى أو في العصر الحديث.. وإنما الذي أراد أن يقوله هو أن «الدين» لا يتناقض مع «الوطنية»، وأن تلازمهما وزمالتهما في نفس الإنسان المتدين بأي دين من الأديان حقيقة ظاهرة للعيان ـ وهو بذلك إنما كان يرد بشكل مباشر على تيار التحديث والعصرية الذي يسقط من حسابه ما في الدين من طاقات تستطيع أن تؤدي دوراً هاماً حتى في ساحة النضال الوطني، كما كان يرد، بشكل غير مباشر، على دعاة الجامعة الإسلامية بمضمونها اللاقومي، عندما أنكروا أهمية الرابطة القومية والوطنية، ورأوا في العقيدة الدينية بديلاً لها...

وهو يعرض لهذه القضية، ويناقش خصوم فكرته عنها فيقول: «قد يظن بعض الناس أن الدين والوطنية توءمان متلازمان، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً، ويفديه بروحه وما تملك يداه...»[٦١].

أليس في قوله هذا الرد، غير المباشر، على دعاة الجامعة الإسلامية الذين يرون أن «الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده» سواء عنده أرض مصر أو الشام أو الهند أو إيران؟ وسواء عنده أكان الحاكم لوطنه تركياً أم كردياً أم أفغانياً؟! المهم هو عقيدة الموطن ودين الحكام؟!..

أما دعوته إلى إدخال الدين في التعليم، ـ وهي، كما

---

(٦١) المرجع السابق. ص ١٤٨، ١٤٩ (من خطبته في الاسكندرية في ٢ يونيو سنة ١٩٠٠م).

نعلم، غير الدعوة إلى التعليم الديني دون المدني ـ فإن هدفه من ورائها ـ علاوة على تدينه وإيمانه بما في الإسلام من طاقات التقدم والمدنية والعمران ـ كان القضاء على التعصب الديني الذي شاع في العصور المظلمة لهذه الأمة، والذي كان يهدد الوحدة الوطنية الضرورية لتحرير البلاد من الاستعمار..

فلقد أدرك أن الخرافات التي تراكمت على الفكر الإسلامي قد شوهته وعطلت ما فيه من طاقات، وأن هذه الخرافات هي التي تقف وراء التعصب الديني المفتت للوحدة الوطنية، وأن السبيل إلى التخلص من هذه الخرافات هو إشاعة «الحقيقة الدينية» بواسطة التربية والتعليم... وهو يطرح فكره هذا ويناقش خصومه فيه فيقول: لقد «قال أعداؤنا: إننا نخلط الإسلام بالوطنية، ونتكلم دائماً عن المسلمين، ونطلب إدخال الدين في التعليم، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم... ولكن... لماذا يكون الانجليزي وطنياً وبروتستانياً في آن واحد، ولا يكون المصري المسلم وطنياً ومسلماً؟ ألا تكون الوطنية صحيحة إلا إذا قضت على الدين ومحبته؟.. ثم... **إننا إذا طلبنا إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التي راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين، فصار الجهل والتأخر والانحطاط وكل الآفات مما يلقى على الدين وينسب إليه، والدين منه براء. لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية، لأنه لا سبيل لإبادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم الدين إلا بالدين نفسه. فالتعليم الديني ليس فرضاً**

من الوجهة الدينية فحسب، بل هو كذلك أيضاً من الوجهة الوطنية.. إن بث الحقيقة الدينية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى، إذ لا تعصب مع علم، ولا نفرة مع نور ورشاد. فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته، وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم»[٦٢].

«فالحقيقة الدينية» هي السبيل لإبادة جيش الخرافة والتعصب الذي نسب زوراً إلى الإسلام... ولعل عصر مصطفى كامل لم يكن يعرف لجيش الباطل هذا موطناً أوسع من موطن الخلافة العثمانية بفكريتها «الإسلامية» الغارقة في الخرافة والتخلف والخزعبلات؟!

وإذا كان مصطفى كامل قد رأى في «الحقيقة الدينية» الخلاص من الخرافة والجمود والتعصب فلقد رأى كذلك الاستعانة بما في الفكر الإسلامي من طاقات وأفكار وقيم لا تزال صالحة للعطاء في مضمار التقدم والحضارة والعمران، ولم يكن يرى أي تعارض بين استلهام هذه الأفكار والقيم الإسلامية وبين الانفتاح على المدنية والحضارة الغربية، بل لقد كان صوتاً من الأصوات التي ارتفعت بطلب التجديد دون رفض للجيد والصالح من تراثنا الإسلامي، وللأصالة دون رفض للعطاء الحديث الذي تقدمه الحضارة الأوروبية الحديثة.. ولقد

---

(٦٢) المرجع السابق. ص ٥٠٩، ٥١٠ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م).

ضرب لنا مثلاً بالإنجازات التي أنجزتها مصر في عصر محمد علي، معتبراً إياها النموذج الذي أحسن الاستفادة من صالح القديم وجيد الحديث.. فعنده أن محمد علي قد «وفق في عمله بين مبادىء المدنية العصرية ومبادىء الدين الإسلامي، لأنه رأى أن في الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان، وأنه الدين الذي يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الحياة وأتم نعيمها، فإذا اقتدينا به ـ (محمد علي) ـ **واعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها، واعتبرنا بعبر التاريخ، وتركنا النزاع الذي أضر بمصر والإسلام، واجتنبنا كل افتراق وشقاق، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع..»**[٦٣].

كان هذا هو موقف مصطفى كامل من العلاقة بين الوطنية والدين، فهو لا يسقط الدين من حسبانه كما فعل بعض الذين قلدوا ما أرادت لنا أوروبا أن نقلده في تلك القضية، ولم يسقط الوطنية من حسابه كما أراد دعاة الجامعة الإسلامية، بمفهومها العثماني. وهو لم يسقط التراث الإسلامي الصالح للعطاء، في حركة التقدم والعمران، كما صنع «متفرنجو» عصره، ولم يدع إلى العزلة والعزوف عن المدنية الأوروبية، كما دعا إلى ذلك «الجامدون» و«المحافظون».. وإنما اتخذ موقفاً وسطاً، موقف من يستلهم كل العناصر الصالحة للعطاء في معركة التحرر

(٦٣) المرجع السابق. ص ٤٨٢ (من خطبته في ذكرى تنصيب محمد علي حاكماً على مصر ـ ٢١ مايو سنة ١٩٠٢م).

والتقدم، من أي عصر، ومن أية حضارة، ومن أي مكان. . .
كان هذا هو موقفه، وموقعه. . ولقد عبر عنه بدقة الخديو عباس الثاني، في مذكراته عندما قال: «كانت مبادىء مصطفى كامل السياسية ـ بعد أن عانت بضعة تعديلات ـ قد غدت مصرية، دقيقة في مصريتها. وإذا كان قد تكلم أحياناً عن تركيا، أو وجه إلى أوروبا نداءاته المجلجلة، فما كان ذلك إلا ليخفي ثورة لو أن تلاميذه لمحوا منها شيئاً لكان في ذلك ما أفقده سلطته. . . لم يكن يريد أن يقطع صلته بالماضي دون فترة انتقال، وكان يخشى أن يعرض النتائج التي حصل عليها للخطر إذا هو بدا في صورة المجدد المبالغ في تجديده. وأيّاً ما كان الأمر، فإن أساس تعليمه لم يكن في الحقيقة عصرياً مفرطاً في عصريته، بل لعل أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقي مما يعتقد أكثر الناس. . . كان قد جرد وطنيته من كل رداء ديني، ولكنه ظل متديناً ومتملقاً بروح القرآن. . ومع أنه تربى في أوروبا، فلقد كان يستخدم النظريات الأوروبية كوسيلة، ولكنه لا يعتبرها غاية في ذاتها. .»[٦٤].

٦ ـ الوحدة الوطنية

والأمر الذي يؤكد أن «الوطنية المصرية» كانت هي الأساس والمحور في فكر مصطفى كامل ونشاطه العملي، وأنه قد استهدف من وراء السعي لإشاعة «الحقيقة الدينية» ـ بواسطة التربية والتعليم ـ غرضاً وطنياً، وبالتحديد إشاعة حب الوطن،

---

(٦٤) المرجع السابق. ص ٣٥٥.

وتحقيق الوحدة الوطنية حول مطلب الاستقلال والحكم الدستوري النيابي، الأمر الذي يؤكد أن تلك كانت هي غايته، ذلك الموقف الثابت والواضح من ضرورة الوحدة لأبناء الأمة المصرية، بصرف النظر عن اختلاف المذاهب وتعدد الأديان.

ونحن نخطىء إذا توهمنا أن بعض المشاكل الطائفية التي حدثت بعد موت مصطفى كامل بين المسلمين والأقباط في مصر، والتي كان البعض من زعماء الحزب الوطني طرفاً في الصراع الصحفي والفكري الذي دار بشأنها، نخطىء إذا توهمنا أن قد كان لفكر مصطفى كامل أدنى صلة بمثل هذه الأمور.. ذلك أن الاستعمار الانجليزي الذي وقف خلف أحداث تلك الفتنة هو الذي زج باسم الحزب الوطني فيها، وهو الذي اجتهد كي يثير بعض الدوائر القبطية ضد الحزب الوطني زاعماً أن شعار الجامعة الإسلامية لدى مصطفى كامل وحزبه إنما يعني نفس المضمون لذلك الشعار لدى السلطان العثماني، وهو الأمر الذي يلقي بذور الشك والريبة ما بين الأقباط والحزب الوطني..[٦٥].

أما مصطفى كامل فإن موقفه من أهمية وضرورة الوحدة الوطنية لكل أبناء الأمة المصرية هو موقف ثابت وواضح وحاسم لا لبس فيه ولا غموض. فهو يقول: «كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو للشقاق والبغضاء، وهذه الدعوة مناقضة

---

(٦٥) كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) ص ٧١٩، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي. طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م.

للوطنية الصحيحة. فالأقباط إخوة لنا في الوطن، تجمعنا بهم أشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق»[٦٦].

وهو يخاطب الأمة محذراً إياها من الانقسامات والعداوات الدينية فيقول: «**إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار، إياك وهوس العداوات الدينية، فإنها آفة الآفات**»[٦٧].

ويعود إلى الحديث عن طبيعة العلاقة القائمة بين مسلمي مصر وأقباطها، ووحدتهم التاريخية، الأزلية الأبدية، فيقول: «إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد»[٦٨].

ولم يكن هذا الموقف الداعي للوحدة الوطنية والحريص عليها والعامل في سبيلها نابعاً من مناسبات عارضة، ولا كلمات تقال رداً على اتهامات توجه إلى مصطفى كامل ـ ولقد وجهت بالفعل تلك الاتهامات ـ وإنما كان تعبيراً أصيلاً عن إدراك عميق لأهمية الوحدة الوطنية وضرورتها، بل وانتفاء أي مبرر للتمزق الوطني والفرقة والصراع، في مواجهة الاحتلال وفي مرحلة النضال من أجل الاستقلال. فمصطفى كامل يهاجم أولئك الذين يقسمون وحدة الأمة غير مدركين ما تفرضه طبيعة المرحلة

---

(٦٦) الرافعي (مصطفى كامل) ص ١٤٩.

(٦٧) المرجع السابق. ص ٤٨٧ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م).

(٦٨) المرجع السابق. ص ١٠٣ (من خطبته بالاسكندرية في ٨ يونيه سنة ١٨٩٧م).

وضرورات الموقف من وحدة فيقول: «يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الانجليز أن يلقبونا «بالمتطرفين»، ويقسموا الأمة فرقاً وأقساماً، وما دروا أنه لا يصح أن يوجد في البلاد الفاقدة استقلالها، المتحكم فيها الأجنبي إلا حزب واحد، هو حزب الوطن، حزب الحرية، حزب الاستقلال. وقد جهلوا، أو تجاهلوا أنه ليس للبلاد التي يحتلها الأجنبي إلا سياسة واحدة: وهي سياسة المطالبة بالاستقلال، وأن كل قول أو عمل يؤدي إلى إضعاف الروح الوطنية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها ويمستقبلها هو أكبر أذى يلحق بالبلاد...»[٦٩].

ونحن نود أن ننبه إلى أن نوع العلاقة التي رآها مصطفى كامل قائمة ومتحققة بين المسلمين والأقباط بمصر، هي علاقة «المواطنة» و«الأخوة الوطنية»، القائمة على «الوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش»، ومن ثم فلقد كان بهذا التقييم لهذه العلاقة ابناً باراً لعصر التنوير المصري الذي بدأه رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م)، وامتداداً لذلك الإنجاز الذي حققته مصر في ظل تجربة محمد علي عندما أقامت الدولة المدنية للمرة الأولى في تاريخ الشرق الحديث.. كما كان بهذا الفكر وذلك الموقف «مفكراً ومناضلاً قومياً» قد ابتعد عن المفهوم العثماني للجامعة الإسلامية، وهو المفهوم الي كان يرتب عناصر الأمة درجات وطبقات وفق ما تعتنق هذه العناصر من أديان..

---

(٦٩) المرجع السابق، ص ٤٨٧ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م).

كما نود أن نشير إلى أن التيار الوطني الذي تبلور من حول مصطفى كامل قد ضم يومئذ القيادات الوطنية في مصر، بصرف النظر عن أديانها، بل إن أبرز القادة الوطنيين الأقباط الذين شاركوا في تكوين الوفد المصري عقب الحرب العالمية الأولى كانوا من الذين انخرطوا في حركة مصطفى كامل.. ومن هؤلاء القادة مرقص حنا باشا، الذي يتحدث عن دور مصطفى كامل في وحدة مصر الوطنية فيقول: **إن مصطفى كامل: «قد كوّن الوحدة الوطنية، وأرانا طريق الأخاء والحرية.. ورسم لنا طريق الوفاق والتآلف، طريق الحرية والاستقلال... إنه لم يكن صديقاً لفريق من المصريين، بل كان صديقاً لجميع الوطنيين على السواء، إن حياته تعني أن الأمة نمت وسمت وتفارست أغصانها حول جذع واحد وهو مصر، هو الوطن العزيز..»**[٧٠].

بل نقول، مع محمد فريد (١٨٦٧ ـ ١٩١٩م) إن خيوط الوحدة الوطنية التي نسجها مصطفى كامل قد أحاطت، لا بالمسلمين والأقباط فحسب، بل وكذلك باليهود الوطنيين المصريين، ويؤرخ لهذه الحقيقة الهامة محمد فريد عندما يخاطب مصطفى كامل ـ بعد وفاته، في حفل التأبين ـ فيقول: «لقد تحقق ما كنت تؤمله، وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة: مسلمين ومسيحيين

---

(٧٠) المرجع السابق. ص ٤٤٨، ٤٤٣ (من كلمته في حفل تأبين مصطفى كامل في ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨م).

وإسرائيليين كلها مجتمعة كرجل واحد، متحدة الأفكار والقلوب..»[٧١].

نعم.. لقد كانت معركة من المعارك المقدسة، أحرز فيها مصطفى كامل وتياره الوطني انتصاراً يشهد لمفهوم الجامعة الإسلامية عنده بالتميز والتقدم عن كثير من التيارات التي رفعت هذا الشعار في ذلك التاريخ.

٧ ـ وضد التعصب القومي

وكما تنفي هذه الحقائق عن مصطفى كامل والحركة الوطنية التي كونها وقادها تهمة التعصب الديني في جبهة مصر الداخلية، فإنه لم يؤمن في يوم من الأيام بأن شعار الجامعة الإسلامية يعني تعصب الأمم المسلمة ضد الأمم التي لا تدين بالإسلام، بل لقد برىء فكره حتى من التعصب القومي ضد الشعب الانجليزي الذي تحتل حكومته البلاد، وكان دائماً يدرك وينبه غيره إلى الفرق بين الدوائر الاستعمارية وبين الأمة الانجليزية التي يجب أن تكسبها الحركة الوطنية المصرية إلى صف السعي لجلاء جيش الاحتلال عن البلاد..

فعنده أن نطاق الخلاف وإطاره هما مشكلة الاحتلال فقط «فنحن مسلوبون، والانجليز هم السالبون، ونحن طلاب حق مقدس، والانجليز هم مغتصبو هذا الحق، فلا سبيل إلى

---

(٧١) المرجع السابق. ص ٢٨٥.

الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا..»[72].

أما مراده «بالانجليز» الذين يدور الصراع بينهم وبين الحركة الوطنية فيتضح من عباراته التي يقول فيها: «ضد من نجاهد نحن؟ أضد الأمة الانجليزية؟ كلا! ليس جهادنا ضدها، إنما هو ضد فريق من الناس يعملون لتأبيد الاحتلال الانجليزي في مصر إلى الأبد... أما فيما يختص بالأمة الانجليزية فلا نستطيع إلا احترامها، ومهما وقع فإننا نحترمها دائماً، كما نحترم كل الأمم الأخرى، إذ إنه لا يصح بغض أية أمة، ولا يقضى على شعب من الشعوب بخطأ بعض أفراد من أبنائه..[73]. إن الخلاف حقيقة بيننا معشر المصريين وبين بعض الانكليز... إننا لا نبغض الانجليزي، بل نبغض المحتل من حيث هو محتل، ولو كان أقرب الناس إلينا... ونقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الانجليز هي أن زمن الجلاء، على رأينا، حان، وعلى رأيهم لم يحن إلى الآن...»[74].

صحيح أن مصطفى كامل يتحدث عن أن الخلاف هو مع أفراد من الشعب الانجليزي، ولم يبد أنه قد أدرك علاقة الاستعمار والإمبريالية بالمرحلة التي وصلت إليها الاحتكارات الانجليزية، وعلاقة ذلك بالطابع الاستغلالي والنهب

---

(٧٢) المرجع السابق، ص ٤٩٢ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م).
(٧٣) المرجع السابق، ص ٤٦٠ (من خطبته بالاسكندرية في ١٧ أبريل سنة ١٨٩٦م).
(٧٤) المرجع السابق، ص ٤٥٤، ٤٥٥ (من خطبته بالاسكندرية في ٣ مارس سنة ١٨٩٦م).

الاستعماري للبورجوازية هناك ـ وليس هذا موضوعنا ـ ولكن الذي يعنينا هنا هو أن الرجل لم يتخط، فقط نطاق المفهوم العثماني لشعار الجامعة الإسلامية إلى نطاق الفكر القومي، بل لقد تقدم على هذا الدرب إلى الحد الذي تبرأ فيه من التعصب القومي حتى وهو يتحدث عن الشعب الانجليزي والأمة الانجليزية.

٨ ـ الموقف من الحضارة الغربية

ويرتبط بهذه القضية، قضية الاستنارة القومية، ورفض التعصب القومي، النظرة الموضوعية التي تحلى بها مصطفى كامل وهو يقيم حضارة الغرب ومدنيته، فلقد كان نصيراً للاستفادة من هذه المدنية والاقتباس من هذه الحضارة، وهو الأمر الذي يميزه، ولا شك، عن تيارات أخرى رفعت شعار الجامعة الإسلامية، ثم توهمت أن السلامة في إغلاق النوافذ وسد الأبواب وإدارة الظهر لكل المنجزات والنظريات التي أبدعها المخالفون في الدين.

ففي الجوانب الوطنية لا يستلهم فقط تجاربنا وتراثنا الوطني عبر التاريخ، ولا يقتصر الزاد الذي يقدمه لبعث هذه الأمة على التذكير بماضيها المشرق وصفحاتها الزاهية، وإنما هو يستلهم كذلك تراث الأمم الأوروبية في هذا الميدان..

فعندما يعتزم إصدار صحيفة (اللواء) يكتب إلى مدام جولييت آدم يقول: «أشكرك كثيراً إذا تفضلت بإرشادي إلى المؤلفات الخاصة بالتاريخ القومي والقصص الوطنية عن كل

البلاد، لكي ألقن الشعب إياها، فإنه يجب أن أنشر المثل العليا في الوطنية»[75] . . . ثم يكتب إليها ثانية حول ذات الموضوع فيقول: «رجوت منك أن تكتبي لنا بين آن وآخر مواعظ وطنية مما جرى في عصرك أو في بطون التاريخ»[76].

ثم يكتب عن تجربة النضال الوطني للشعب المصري فيقول: «إن تاريخ هذا الوطن المصري هو أكبر مدرسة لرجل مثلي وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه..»[77].

أما عن تقييمه للحضارة الأوروبية والمدنية الغربية، فإنه التقييم الذي يجعل منه أحد الأبناء البررة لعصر التنوير المصري الذي استفاد استفادة ملحوظة من حضارة الغرب ومدنيته، فهو يتحدث إلى الأمة المصرية قائلاً: «نقول للأمة: .. إياك وسوء ظن الملأ المتمدن بك، فإن الشعوب في المدنية متضامنة، ويا شقاء من سار ضدها..!»[78].

ثم نراه يشرح نظرته تلك وموقفه هذا في المقال الشهير الذي كتبه عن حادثة «دنشواي» فيقول: «إن الخطة الوطنية التي يجري عليها أصحاب النفوذ والتأثير في الرأي العام المصري واضحة جلية، فنحن نريد، بفضل التعليم ونور التقدم، إنهاض

---

(٧٥) المرجع السابق. ص ٤٢٧. (من خطاب مؤرخ في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩م).

(٧٦) المرجع السابق. ص ٤٢٧ (من خطاب مؤرخ في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩م).

(٧٧) (اللواء) مقال عنوانه (حزب وطني حر في مصر) بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٩٠٠م).

(٧٨) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٤٨٧ (من خطبته بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م).

شعبنا، وتعريفه حقوقه وواجباته، وإرشاده إلى المقام اللائق به في العالم، وإننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية، وإننا أول شعب شرقي صافح أوروبا، وإننا مستمرون على السير في الطريق الذي سلكناه...»[79].

فنحن هنا بإزاء موقف متميز لتيار شهدته ساحة النضال تحت شعار الجامعة الإسلامية، وهو التيار الذي أراد أن يزاوج ما بين العناصر الصالحة في تراث الشرق وما هو صالح وملائم في حضارة الغرب ومدنيته.. ولقد صدق الكاتب الفرنسي «لويس برنزان» عندما وصف نموذج المدنية الذي راود خيال مصطفى كامل فقال: إنه كان يحتقر مدنية لا غاية لها إلا الرقي المادي دون عناية بتحرير النفس أدبياً!» فمع «التفاعل» هناك «التميز» فلا «تبعية» و«انغلاق»!.

ولعل هذا الموقف من الحضارة الغربية كان أشبه بموقف الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده منه بموقف الذين أرادوا «محاكاة» هذه الحضارة.. كما كان بموقع قصي من موقف الجامدين والمحافظين والعثمانيين..

٩ ـ النظام الدستوري النيابي

والبعض يظن أن شعار الجامعة الإسلامية قد جعل مصطفى

---

(٧٩) المرجع السابق. ص ٢١٥ (والمقال منشور في صحيفة (الفيجارو) في ١١ يوليو سنة ١٩٠٦م).

كامل ـ تحت تأثير العلاقات القائمة بين تياره الوطني وتركيا، التي كانت تحكم حكماً «أوتوقراطياً» ـ يهمل الدعوة إلى النظام الدستوري النيابي، وينسب هذا البعض بدء اليقظة الدستورية ـ بعد هزيمة العرابيين وحدوث الاحتلال الانجليزي ـ إلى التيار الذي تبلور في (حزب الأمة) وزعيمه أحمد لطفي السيد.. ولكن هذا الظن من هذا البعض هو أبعد ما يكون عن الصواب.. فبعد أن اتضحت طبيعة مضمون شعار الجامعة الإسلامية لدى مصطفى كامل، وطبيعة العلاقة التي ربطت بين تياره الوطني وبين الدولة العثمانية، لا بد وأن نبحث عن موقفه من النظام الدستوري والنيابي دون أن ندع هذا الظن يلقي ظلاله على هذا الجانب من جوانب فكر ونضال هذا الزعيم..

وإذ كان بحثنا هذا لا يرمي إلى دراسة كل جوانب فكر ونضال مصطفى كامل، ومن ثم فإن الإفاضة في دراسة فكره الدستوري ونضاله في سبيل الحكم النيابي هو أمر خارج عن غرضنا وعن حيز دراستنا هذه، فإننا نتناول، بالإشارة المتأملة، موقفه من هذه القضية بقدر ما تنهض هذه الإشارة دليلاً جديداً على الاختلاف في الموقف والرأي والفلسفة بين مصطفى كامل وبين فكرية الدولة العثمانية ونمطها في الحكم وفلسفتها في إدارة شؤون الإمبراطورية.. لقد كانت الدولة العثمانية دولة أوتوقراطية، وكذلك كان المؤمنون بفلسفتها في الحكم، بينما كان مصطفى كامل من أوائل الذين ناضلوا في مصر، بعد الاحتلال، في سبيل الحكم النيابي والدستور.

والدستور عنده لم يكن نصاً ميتاً يُرضي به الحاكم

المحكومين، وإنما كان يعني سلطة الشعب التي تعلو على كل السلطات ـ الدستور يعني عند مصطفى كامل «.. منح الأمة حق الإشراف على كافة الأعمال، ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لعزها، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة، وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت في خدمة البلاد.. الدستور هو: ألا يستطيع أحد مهما كان عظيماً، وطنياً أو أجنبياً، أن يمس القوانين والنظامات بشيء..»[80].

وإذا كان هذا هو موقف مصطفى كامل وفهمه للدستور، فلعل في التذكير بأن فكرية الدولة العثمانية كانت تقوم على فلسفة فيها شبهة في الاستبداد باسم الدين، وأن الخليفة العثماني هو ظل الله على الأرض، وأنه لا يجوز تغيير صاحب السلطة ولا الثورة عليه حتى لو فسق وفجر... لعل في التذكير بطبيعة فكرية هذه الدولة ما يضع فكرنا على مدى البون الشاسع، بل التناقض الجذري، بين فكرية مصطفى كامل وفكرية العثمانيين، ومن ثم يؤكد لنا اختلاف مضمون شعار «الجامعة الإسلامية» عنده عنه لدى العثمانيين.

أما النظام النيابي، الذي يعبر فيه المجلس النيابي عن رأي الأمة ومصالحها، والذي يمارس فيه سلطانها وسلطتها، فلقد دعا إليه مصطفى كامل، بل وكان الرائد الذي سبق الدعاة إليه

---

(٨٠) المرجع السابق. ص ٤٨٠ (من خطبته في ذكرى حكم محمد علي لمصر ـ ٢١ مايو سنة ١٩٠٢م).

بعد الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م.. بل لقد اقترنت دعوته إلى الحكم النيابي بدعوته إلى الاستقلال، أي منذ بدأ حياته السياسية الحقيقية في سنة ١٨٩٤م.. وهو يكتب مؤرخاً لبدئه الدعوة إلى ذلك فيقول ـ في سنة ١٩٠٤م ـ: «لعل قراء (اللواء) وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ما قلناه من فوق المنابر، وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها عن وجوب إنشاء مجلس نيابي منذ عشر سنوات كاملات، ويسرهم، كما سرنا، أن هذا الطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهل القطر، لأنه الأنشودة التي يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال. وسواء كان سابقاً أو لاحقاً لتخلص البلاد من رق الاحتلال فإنه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة.. ليس للاحتلال مصلحة في إيجاد مجلس نيابي لهذه البلاد، ولكن صوت الأمة يعلو على صوته، إذا تمسكت به ودعت إليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات، التي هي أكبر القوى الفعالة في حياة الأمم.. فلتفعل، فإنما هي تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال...»[٨١].

ومصطفى كامل يربط هنا ربطاً وثيقاً بين التحرر من الحكم الفردي والتحرر من سلطة الاحتلال، وينفي الوهم الذي شاع لدى فئة من الوطنيين يومئذ بأن الاحتلال لا مانع لديه من إعطاء الدستور والحكم النيابي، ومن ثم ينفي مبرر ذلك

---

(٨١) (اللواء) مقال بعنوان (إنشاء مجلس نيابي) في ٩ مارس سنة ١٩٠٤م.

التناقض المفتعل بين الاستقلال وبين الدستور والحكم النيابي، ولأيّ منهما تكون الأولوية في النضال والجهاد؟؟!

وفي مقام آخر يعالج مصطفى كامل الفوضى السياسية والإدارية التي خلقها الاحتلال بمصر، ويحدد أن المخرج منها هو الحكم النيابي، والتخلص من سلطة الفرد، سواء أكان هذا الفرد أجنبياً أم مصرياً، مما ينفي عن الرجل شبهة أن مطالبته بالحكم النيابي إنما كانت أمراً يقصد به إحراج الانجليز، وأنه كان على وفاق مع دعاة السلطة الفردية، مصريين كانوا أم عثمانيين.. يقول عن علاج المشاكل التي أوجدتها سلطة الاحتلال الاستبدادية: «... وعندي أن هذه الأدوار المختلفة والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد إلى مجلس نيابي تكون له السلطة التشريعية الكبرى، فلا يسن قانون بغير إرادته، ولا تحور مادة إلا بمشيئته، ولا يزعزع نظام بغير أمره، ولا تعلو كلمة على كلمته، **وإلا فإن بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد، سواء كان مصرياً أو أجنبياً، يضر بالبلاد كثيراً، ويجر عليها الوبال..**»[٨٢].

ثم يزيد مصطفى كامل أمر رفضه لسلطة الفرد وضوحاً وحسماً، حتى لو كان هذا الفرد هو الخديو، فيقول: «إن كل مصري صادق الوطنية لا يقبل مطلقاً أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده، أو بيد المعتمد البريطاني، أو بيد الاثنين معاً، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بين النابغين

---

(٨٢) المصدر السابق. مقال بعنوان (إفلاس الاحتلال) في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢م.

والصادقين من أبنائه، وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية..»[٨٣].

ثم يكتب إلى رئيس الوزراء الانجليزي في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧م - في ذكرى احتلال الانجليز للقاهرة سنة ١٨٨٢م - فيقول عن هذه القضية: «إننا نطلب لمصر حكومة دستورية حرة، وإننا لا نقبل حكم الأهواء والاستبداد أبداً، **وإن الإرادة الوحيدة التي نريد أن نخضع لها هي إرادة الأمة**، وأن العقل لا يقبل مطلقاً أن السلطة المطلقة المتقلبة حسب الأغراض والأهواء، التي يتصرف بها المعتمد البريطاني، تكون أفضل وأنفع من دستور أهلي - (وطني) - مؤسس على المبادىء الحرة..!»[٨٤].

ثم ينبه الأذهان إلى أن الحكم الدستوري النيابي الحقيقي شيء وما يعد به الاستعمار ويقنع به البعض من الإصلاحات «الدستورية» العرجاء شيء آخر، وأن الثانية لا تساوي، ومن ثم لا تغني، عن الأولى - فعنده «إن المصريين لا يرضون بإصلاحات سطحية يعطونها ذراً للرماد في العيون، بل إنهم لا يطمئنون على أنفسهم وبلادهم إلا إذا عادت الحكومة الأهلية - (الوطنية) - بسلطتها وسطوتها ورهبتها، **وكانت حكومة دستورية خاضعة لمبادىء التمدن الحديث، ومستمدة قوتها من الشعب، وعاملة برغائبه، ممتثلة لأوامره**... إن المصريين لا

(٨٣) المصدر السابق. مقال بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧م.
(٨٤) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٢٥٥.

يرضون بحكومة الرجل الفرد، سواء كان مصرياً أو أجنبياً. .»[٨٥].

فهو هنا يربط ما بين الاستقلال والحكم الدستوري النيابي والارتباط بمبادىء التمدن الحديث. . . وشتان ما بين موقف صاحب هذا الفكر وموقف أولئك الذين بشروا أو قبلوا بفكرية الحكم الأوتوقراطي التي نهج نهجها العثمانيون. .

* * *

الجامعة الإسلامية هي التضامن

وأخيراً. . فإن مصطفى كامل يحدد أن شعار الجامعة الإسلامية لا يتعدى حدود روابط «**التضامن والتعاطف**»، ولا يرقى إلى «الدولة»، أو «العصبة الدينية»، ومن ثم لا يمثل أي قيد على استقلال مصر التام القائم على تبلورها كأمة تمتلك كل قسمات الأمة بمعناها العلمي والحديث. . فالرجل الذي أسهم الإسهام الأكبر في بعث روح مصر الوطنية والقومية المصرية الحديثة قد أبصر وراء دائرة مصر القومية دائرة أوسع من التضامن والتعاطف الأدبي والسياسي، وتتمثل في نوع من «الأممية الإسلامية» ـ إن جاز التعبير ـ وهذه الأممية لا تقوم على وحدة العقيدة وحدها، وإنما هي تقوم أيضاً على وحدة المشاكل أو وحدة أسباب التخلف، ووحدة المعركة التي

---

(٨٥) المرجع السابق ص ٥٠٥، ٥٠٦ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م).

تخوضها شعوبها ضد الاستعمار الأوروبي الزاحف على أوطانها بكل الوسائل ومن مختلف الاتجاهات..

وفي النداء الذي وجهه مصطفى كامل إلى العالم عقب حادثة «دنشواي» يقول عن علاقة «التضامن والتعاطف» هذه: «إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعي، لا تعصب فيه، وإنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية في عصبة واحدة ضد أوروبا، والذين يقولون بذلك إما جاهلون أو راغبون في إيجاد هاوية بين العالم الأوروبي والمسلمين.. إنه لا سبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقي..»[٨٦].

وعندما تكتب جريدة (الطان) الفرنسية عن تخوف أوروبا من حركة الجامعة الإسلامية يكتب مصطفى كامل، راداً عليها، مقالاً يقول فيه: «لقد فسرت كلمة الجامعة الإسلامية في أوروبا تفسيراً لا يتفق ومعناها الحقيقي، وإني أعيد هنا ما كتبته في «الفيجارو» و«اللواء» وما قلته في كل مكان، من أنه **لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا**. وإني أتساءل: من الرجل العاقل السليم الإدراك الذي يصدق إمكان تغلب الشعوب الإسلامية على كافة الدول الأوروبية؟! إن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن

---

(٨٦) المرجع السابق. ص ٢١٥، ٢١٦ (من مقال «إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن» المنشور في صحيفة (الفيجارو) في ١١ يونيو سنة ١٩٠٦م).

حركة الجامعة الإسلامية، بالمعنى المقصود منها في أوروبا، أي الحرب الدينية، لا وجود لها بالمرة، لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم، وأن الأمة التي تحاول ذلك تقضي على نفسها بالموت، أما الشعور الموجود، وبلا نزاع، عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملين أحسن من المعاملة الحالية، ومعتبرين كجزء حي من الإنسانية، ومحترمين في كل مكان، ومن كل إنسان، وأنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة، وأن هذه النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية، بل بالتعليم والنور، . وبما أن الإسلام ليس عقيدة فقط، بل قانون اجتماعي، فإن إحياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان إلا بإظهاره على حقيقته، وأن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي، ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل..»[87].

* * *

تلك هي أفكار مصطفى كامل عن الجامعة الإسلامية.. رفع شعارها وناضل تحت رايتها، ولكن من منطلق قومي مصري مستنير، فكان نموذجاً متقدماً من بين النماذج المتعددة التي شهدتها ساحة حركة الجامعة الإسلامية في ذلك التاريخ.. نعم.. كان أكثر تقدماً من أولئك الذين رأوها رباطاً يصنع دولة

---

(٨٧) المرجع السابق. ص ٤٤٨، ٤٤٩.

واحدة للعالم الإسلامي، عثمانية كانت تلك الدولة أو غير عثمانية، لأنه لم ينكر الدائرة القومية كما أنكروها. . وكان أكثر تقدماً من أولئك الذين رأوا فيها مجرد حركة روحية، لأنه أبصر قيمتها السياسية في التصدي للاستعمار. . كما أبصر ما في الإسلام من «قانون اجتماعي» يتجاوز به إطار «العقيدة الروحية للدين». . وكان أكثر تقدماً من أولئك الذين رأوها سياجاً تقبع من خلفه الشعوب الإسلامية كي يصد عنها الرياح الحضارية الآتية من خلف البحار، لأنه كان سياسياً مستنيراً، حاول أن يزاوج، قدر طاقته، بين تراثه الإسلامي وتقاليده الشرقية وبين عطاء الحضارة الغربية ومدنية الأوروبيين. .

وإذا كان الفكر الاجتماعي لمصطفى كامل قد اتصف بشيء من المحافظة في بعض القضايا، كقضية تحرير المرأة وأمثالها، فليس ذلك من آثار إيمانه بحركة الجامعة الإسلامية، لأنها كانت عنده شعاراً سياسياً، ولأن المحافظة في مثل هذه القضايا الاجتماعية ليست وقفاً على الذين اعتنقوا هذا الشعار. . فلقد كان الأفغاني ومحمد عبده قطبي تيار واحد من تيارات الجامعة الإسلامية، ومع ذلك تميز فكر الأفغاني إزاء تحرير المرأة بالمحافظة والتحفظات، بينما استشرف فكر الإمام محمد عبده في ميدان حريتها وتحريرها آفاقاً جعلته ينشر بعض أفكاره الخاصة بها باسم قاسم أمين[٨٨]، لأنها قد تجاوزت الحدود التي

---

(٨٨) انظر الدراسة التي قدمنا بها للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. جـ١ ص ٢٤٥ وما بعدها.

يسمح بها عصره لمن يتزيا بزيه ويتولى مثل مسؤولياته الدينية؟!

* * *

وإذا كان لأحد أن ينتقد غياب الموقف النقدي عن هذه الصفحات التي قدمناها عن مصطفى كامل والجامعة الإسلامية، فإننا نود أن نقول: إنه ليس في فكر مصطفى كامل إزاء هذه القضية شيء يعتذر عنه محبوه أو ينتقده عليه دارسوه، فلقد كان أكثر الأصوات التي ارتفعت بشعار الجامعة الإسلامية تقدماً، وإذا كان عبد الرحمن الكواكبي قد أرسى أسس القومية العربية والأمة العربية ورأى في الجامعة الإسلامية دائرة التضامن الأدبي والفكري والسياسي التي تليها، فإن مصطفى كامل قد اتخذ من «الوطنية المصرية» قاعدة انطلاقه، ثم رأى في الجامعة الإسلامية دائرة التضامن الأدبي والفكري والسياسي التي تلي دائرة الأمة المصرية... وهو فكر لا نقول إنه قد كان صالحاً لعصره فقط، بل وصالح كذلك للعصر الذي نعيش فيه، لأنه يلمس بعمق تلك الحقيقة التاريخية التي تحتم الربط بين مصر وبين المحيط الذي يكتنفها.. فهذا الربط هو ضرورة حياة لمصر، كما هو ضرورة حياة لبلدان ذلك المحيط. سيان في ذلك «الدائرة العربية الإسلامية» والدائرة الإسلامية ـ غير العربية ـ في هذا المحيط.

* * *

وختاماً.. نقول: إنه إذا كان هذا البحث قد التزم بالموضوعية، وتجلى ذلك الالتزام في النصوص العديدة التي استشهدنا بها لمصطفى كامل، حتى لقد جعلنا منه بعثاً وبلورة

لهيكل فكره في هذا الموضوع . . فإنه قد كتب كذلك من موقع الحب والإعزاز والفخر بصاحب ذلك الصوت الحبيب المدوي الذي أيقظ مصر من نومها، وأنقذها من عثرتها، وبث فيها روح النضال بعد سنوات من ظلام اليأس الذي أطبق عليها بعد الاحتلال . .

وإذا كان مصطفى كامل قد أحب مصر كما لم يحبها أحد من معاصريه، فإن حبه والاعتزاز به هما جزء لا يتجزأ من حبنا لهذا الوطن المقدس الذي نعيش فيه.

وأنه لمما يزيد المرء سعادة أن يتخطى بحث يقدمه نطاق «الدراسة المجردة» لموضوع من الموضوعات، ليصبح جزءاً من العمل الوطني العام . . فهذا هو معنى الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد مصطفى كامل . . ففي ذكراه وذكرنا له ودراستنا لفكره ونشاطه ونضاله إحياء وإعلاء لذلك السلاح الذي ما زلنا نشحذه في معاركنا الراهنة والمستقبلة، سلاح «الوطنية المصرية» الذي كان مصطفى كامل أعظم ترسانة صنعت لمصر سلاحها هذا في عصرها الحديث . . وكما قال ـ عليه رحمة الله ـ: فإنه **«لا شيء يرفع مقام الوطنية في بلاد مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا في خدمتها، وقضوا أعمارهم في العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها ولا شيء يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان في أمة، وجهلها لتاريخها، وعدم تقديرها للرجال المخلصين في خدمتها . .»**[89].

---

(٨٩) (اللواء) في ١٠ مارس سنة ١٩٠١م (من مقال كتبه في ذكرى علي باشا مبارك).

ففي هذا الاحتفال إعلاء لمقام «الوطنية المصرية»، وإسهام في معارك اليوم والغد، من خلال استلهام أنصع صفحات الماضي التي كان مصطفى كامل من أكثر نماذجها إشراقاً في عصرنا الحديث.

هكذا تكلم مصطفى كامل

يحسب كثير من الناس أن مصطفى كامل كان شاعر الوطنية المصرية.. وفقط.. ولذلك فهم لا يعرفون أنه إلى جانب حبه الصوفي لمصر، وغزله في حضارتها، وصلاته لحريتها واستقلالها وتسبيحه بعزتها وكرامتها، كان مفكراً سياسياً تميز بالعبقرية والنبوغ وإن هذه العبقرية والنبوغ قد تدعما واستوى عودهما بالدرس للسياسة العالمية وقوانينها والمصالح التي تحركها، وبالدرس كذلك لتاريخ وطنه وحضارته وواقعه الوطني الذي عاش فيه..

ومن هنا فإن تقديم عدد من الصفحات التي تمثل مجرد نماذج من إنتاج مصطفى كامل هو أمر ضروري لتصحيح تلك الصورة المبتورة التي يحسبها الكثير من الناس صورته.

ولما كان الحيز الذي قررناه لهذه الدراسة لا يحتمل التوسع في حجمها، فإننا نختار هنا نموذجاً واحداً من كل فن من الفنون التي تجلت فيها عبقريته.. لقد كتب الرسائل.. وحرر المقالات.. وأنشأ أروع الخطب وأحلاها في تاريخ مصر الوطني الحديث.. ولذلك فإننا نقدم هنا:

١ ـ رسالة كتبها من باريس إلى رفيق نضاله وخليفته في قيادة الحزب الوطني محمد فريد [١٨٦٨ ـ ١٩١٩م] بتاريخ ٢٤

سبتمبر سنة ١٩٠٦م. وفيها يقترح العمل لإنشاء الجامعة الوطنية المصرية.. وكان سباقاً في هذا المضمار.

٢ ـ المقال الذي كتبه عن حادثة «دنشواي» في صحيفة (الفيجارو) الفرنسية بتاريخ ١١ يوليو سنة ١٩٠٦م تحت عنوان: (إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن).. فهو قطعة راقية من الأدب السياسي المصري الوطني الحديث..

٣ ـ الخطبة التي ألقاها في الذكرى المئوية لاختيار الشعب المصري محمد علي باشا والياً على مصر، وذلك في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢م.. ففيها نموذج لفكره عندما يقيم تاريخ مصر وحضارتها، وعندما يتحدث عن شعبها، وينظر إلى مستقبلها المأمول والمنشود..

[رسالة إلى محمد فريد]

«عزيزي فريد بك».

«تحية وسلاماً واحتراماً وإعظاماً، وبعد».

فقد طالعت اليوم في (اللواء) بعد عودتي من «هنداي» أنه تأسست لجنة في مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتي إلى وليمة، وإهدائي هدية، إعلاناً لارتياح المصريين من قيامي بخدمة بلادي العزيزة، وأنك تفضلت فقبلت أن تكون أميناً لصندوق هذه اللجنة.

«فاسمح لي أن أرجو منك أن تتنازل بتبليغ أعضاء هذه اللجنة، ومن تكرموا بتلبية دعوتها، إني أشكرهم من صميم فؤادي على جميل انعطافهم نحو أضعف خَدَمة الوطن، وجزيل

رعايتهم نحو رجل لا يرى فيما عمل إلا جزءاً من واجب عظيم جسيم يطالب كل مصري بتأديته».

«وإني ما شعرت لحظة واحدة في حياتي بأني مستحق لشيء من الالتفات أو الشكر على دفاعي عن حقوق مصر، ومطالبتي باستقلالها، ومناداتي بوطنية أبنائها، لأني إنما أقوم بفرض مقدس، وما خطوت إلى اليوم الخطوة الأولى في سبيل إسعاد مصرنا العزيزة، التي امتلأت رحابها بعظام الآباء والأجداد».

«وأي فضل لمثلي، وأصغر جندي في الجيوش يلقي علينا جميعاً أكبر درس، وأسمى عظة، لأنه الحامل لراية الوطن، المدافع عن شرفه ومجده واستقلاله، المفدي لحياته صيانة لحياة الملايين من الشيوخ والنساء والأطفال».

«فإذا كان هذا شأن كل فرد من أفراد الجيش، ووظيفة كل جندي من جنودها، فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة وعظيمة، نحن الذين استفدنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا، وامتزنا بالعلم والعرفان، وقدرنا حقوق الديار، ورأينا نور الحقيقة ساطعاً أمامنا، وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية، وقارنا بين حالهم وحالنا، وتقدمهم وتأخرنا»؟.

«شكراً لكم، وألف مرة شكراً، ولكني لا أستطيع أن أقبل ثناء لا أستحقه، وإكراماً لم أفعل شيئاً لنيله، **ولا يمكنني أن أرضى بأن يكون الشعور الوطني مما يكافأ الرجل عليه، وهو لا يكون رجلاً إلا به.**

«نعم إني أعلم أنكم تحيون في شخصي الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة، وتريدون أن تعلوا شأنها، وترفعوا لواءها، كما أن أعدائي والطاعنين علي إنما يحاربون في الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور؛ لأني لست شيئاً، على حين أن الوطنية هي في حياة الأمة كل شيء».

«ولكن ما تبتغون كائن لا ريب فيه، فقد ارتفع لواء الوطنية المصرية رغماً عن كل معاند ومعارض، وعلم العالم كله أن المصريين أحياء يشعرون ويرغبون المجد من السبل الصالحة المؤدية إليه، واقتنعت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور والحرية بالعقل والروية ونسعى إلى إسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانوني، وهي نتيجة ما كان ليصدق أعداء مصر والمصريين أنها تكون بعد أن ظن الجاهلون بأسرار حياة الأمم وارتقائها أن مسألة استقلال مصر قد قبرت واستراح ساسة الانجليز منها.

«فخير هدية أقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هي أن تقوم اللجنة التي شكلت بدعوة الأمة كلها، وطرق باب كل مصري لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، وتهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون في عداد خدامها المخلصين ممن لا يخافون في الحق لوماً ولا عتاباً، ويعملون لمداواة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية في كافة أبنائها، لأن كل مليم يزيد على حاجة المصري ولا ينفق في سبيل التعليم هو ضائع سدى، والأمة محرومة منه بغير حق».

«هذه هي الهدية الوحيدة التي يليق بالوطنيين الصادقين

إهداؤها لمصر والمصريين، هذه هي الهدية الفريدة التي تملأ الفؤاد فرحاً وانشراحاً وفيها أرقى مظاهر الحياة والشعور».

«فلتنس الأحزاب انقساماتها، ولينس الصحافيون خصوماتهم، ولتلق الأحقاد - (ولو يوماً واحداً) - في هوة لا يسمع منها لغو ولا دوي، ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الفخم، وتحقيق ذلك المشروع الذي كله خير ونفع عميم».

«وليذكر الذاكرون أن بين أبناء الفقراء، الذين سد الاحتلال في وجوههم أبواب العلم والنور، رؤوساً لو تحلت بالعرفان لكانت فخار مصر إلى أبد الزمان، ليذكر ذوو الإحساس والوجدان أن في مصر كنوزاً لم تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس لملأت الأرض نوراً، وأن هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء، أن الكلية هي البناء الذي أدعو المصريين جميعاً إلى تشييده، وما أكبر سعدي، وأعظم هنائي، لو ساعدتني الأيام على وضع حجر فيه مع العملة الأبرار الذين يعملون لخير البلاد ليس إلا، ولا يسألون أحداً (جزاء ولا شكوراً).

هذا وأرجوك أيها الصديق أن تتفضل بقبول أصدق سلام وأوفى احترام من محبك وأخيك».

مصطفى كامل

باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦

مقال

(إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن)[90]

«لقد حدثت حادثة مؤلمة في قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى «دنشواي» تحركت بسببها عواطف الإنسانية في العالم كله، وقام رجال أحرار الفكر مستقلو الأخلاق والأطوار في انجلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس؟

«وإنه لمن الواجب على الذين يشفقون حقيقة بالإنسانية والعدل، أن يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل، وهي المسألة الشاغلة لأمة بأسرها»!

«فقد ترك ضباط من الانجليز في يوم ١٣ يونيه الماضي معسكرهم بالقرب من دنشواي بمديرية المنوفية، وقصدوا صيد الحمام في الأملاك الخصوصية للأهالي، فأنذر شيخ فلاح

---

(٩٠) نشرت (الفيجارو الفرنسية هذا المقال في ١١ يوليو سنة ١٩٠٦م. ثم ترجم إلى الإنجليزية ونشرته صحافة إنجلترا.. ولقد تحول إلى بيان الحركة الوطنية المصرية عن «دنشواي»، تبنته مختلف الدوائر الوطنية كوثيقة ضد بربرية الاحتلال الإنجليزي لمصر وفظائعه فيها.

المترجم المرافق لهم بأن الأهالي قد استاءوا في العام الماضي من صيد الضباط الانجليز لحمامهم، وأنه ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد في هذا اليوم»!

«ورغماً من هذا الإنذار فإن الضباط أخذوا يصطادون، وأطلقت العيارات النارية، وجرحت امرأة، وحرق جرن، فاجتمع الفلاحون من كل مكان، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الانجليز، جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الانجليز، وقد تخلص أحد المجروحين وهو الكابتن «بول» من المعركة، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلو مترات، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة وسقط بعد ذلك ميتاً بضربة الشمس وما علم العساكر الانجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواي، وقتلوا فلاحاً بدق رأسه»!

«هذه هي الوقائع، وما علمها أصحاب الأمر من الانجليز حتى فقدوا الرشد، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم! وبدلاً من أن ينظروا إلى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك، بالغوا فيها وجسموها، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التي ستضرب للناس ستكون هائلة! فلم يكن العدل هو المنشود في المسألة، بل الانتقام الفظيع»!

«ونشرت نظارة الداخلية، بأمر المستر متشل المستشار الانجليزي، قبل المحاكمة بأسبوع، بلاغاً رسمياً أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم، وقصدت صراحة التأثير في المحكمة

والرأي العام! وبلغ من احتقار إحدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق إلى دنشواي قبل المحاكمة، وقد راع الشعب كل ذلك، فأخذ يتساءل عن الحكم الذي ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة».

«وقد اجتمعت المحكمة في يوم ٢٤ يونيه، وأي محكمة؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ولا قانون يربطها! لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التي تخطر على البال! محكمة أغلبيتها للانجليز ولا تستأنف أحكامها، ولا تقبل العفو! وأن المرسوم الذي صدر بتشكيلها في عام ١٨٩٥ ـ بناء على ضغط اللورد كرومر ـ ذلك الضغط الذي لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقاً بإظهار أي مقاومة ـ يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الانجليزي الذي ألقت عليه انجلترا أمر تأييد الأمن في مصر، في خطر مستمر، جعله في حاجة إلى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة إرهاب».

«قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام في نظر القضية، وتبين أن الضباط الانجليز هم الذين هاجموا الفلاحين بصيدهم في ممتلكاتهم، وبجرحهم إحدى نسائهم، وأن الفلاحين هجموا على الانجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد، لا ضباط بريطانيون! واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز، بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعي للمحاكم، بأن الكابتن «بول» مات بضربة الشمس، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لإحداث الوفاة»!

«ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهماً ليقولوا ما عندهم، وأبت سماع أقوال أحد رجال

البوليس، حيث أكد أن الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالي، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب في المعركة، والذين يعتبرهم العدل في كل بلد خصوماً للمتهمين»!

«وفي يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً على واحد، وبها لمدة سبع سنوات على ستة، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة، وبالجلد على خمسة، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول»!!

«وقررت المحكمة في حكمها تنفيذ الحكم في اليوم التالي! بحيث لم يمض إلا خمسة عشر يوماً بين الواقعة وتنفيذ الحكم».

«ففي الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء ٢٧ يونيه جيء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق، والثمانية المحكوم عليهم بالجلد ـ (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) ـ من «شبين»، مقر مديرية المنوفية، إلى قرية (الشهداء) التي تبعد أربعة كيلو مترات عن «دنشواي»، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع! وفي الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٧ يونيه جيء بهم إلى «دنشواي»، وكان أصحاب الأمر من الانجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم في محل الواقعة، وفي الساعة التي وقعت فيها»!

«نصبت المشانق، ووضعت آلات الجلد والتعذيب في وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر، وأحاطت عساكر «الدراجون» الانجليزية بالمحكوم عليهم، والتفت الخيالة المصرية حول الانجليز، وتولى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ! وقد تقدم إليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلاً مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة، فرفضا قبول هذا الرجاء الذي هو أعز ما يرجوه الإنسان ويحتمه الشرع والعدل»!

«وفي منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولها وشهرت سيوفها وبدىء بعد ذلك بدقيقة في الشنق»!

«فشنق رجل، ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالي القرية، وهم عن بعد، يملئون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب، وجلد اثنان أمام الجثة»!

«وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات، واستمر ساعة من الزمن! منظر وحشي مهيج للعواطف، بكى منه بعض الحاضرين الأوروبيين بدموع الحنان، وأبدوا النفور الشديد مما رأوا! وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين:

«لعنة الله على الظالمين! لعنة الله على الظالمين!»

«إن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦، سيبقى ذكره في التاريخ شؤماً ونحساً! وهو خليق بأن يذكر في عداد أيام التناهي في الهمجية والوحشية»!

«عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما

استفاضت أنباء تنفيذ الحكم في دنشواي، ولقد كان من المستحيل على أعذاء انجلترا أن يصلوا إلى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاماً! ولكن من العجيب أن يكون الموجدون لها هم رجال من الانجليز! وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواي أشعاراً تخلد ذكرى المناظر الوحشية التي أهينت فيها المدنية والإنسانية والعدل بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس»!

* * *

«وإني جئت اليوم أسأل الأمة الانجليزية نفسها والعالم المتمدن، إذا كان يصح التسامح في إغفال مبادىء العدل وشرائع الإنسانية إلى هذا الحد»؟!

«جئت أسأل الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبي والمادي لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية»؟!

«جئت أسأل الذين يجاهرون في كل آن ذاكرين الإنسانية، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع في بلاد أخرى، دون فظيعة دنشواي ألف مرة، أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفي وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوروبية في أعين العالم كافة»!

«جئت أسأل الأمة الإنجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها في مصر يلجئون، بعد احتلال دام أربعة وعشرين

عاماً، إلى قوانين استثنائية، ووسائل همجية، بل وأكثر من همجية، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الإنسان»؟!

«إني معجب بكل إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانجليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التي مثلت في مصر! ولكن لما رأى السير إدوارد جراي[٩١] أن الرأي العام أنقاد لهم، وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر، وقف في مجلس العموم وتكلم عن التعصب الإسلامي المزعوم في مصر، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح ألا يشغلوا بمسائل مصر، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية، أو بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق في مصر، أمام خطر أصرح أنا علناً بأنه موهوم»!!

«إن هذا الخطر الموهوم ليس في أيدي أصحاب الأمر من الانجليز إلا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة، وفظائع أخرى تقع في المستقبل».

«إنه لا وجود لهذا الخطر! وما الغرض من هذه الفظائع إلا إحداثه»!

«وإني أؤكد بحق أقدس شيء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الديني في مصر، نعم إن الإسلام سائد فيها لأنه دين

---

(٩١) وزير خارجية إنجلترا وقتئذ.

الأغلبية العظمى، ولكن الإسلام شيء والتعصب شيء آخر، لقد انخدع السير إدوارد جراي في هذه المسألة! وإني أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتي: هل لو كان في مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع انجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلماً أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم»؟

«هل تنفيذ الحكم في دنشواي بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافياً وحده لإشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود»؟

«ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لإخراج الشعب المصري عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة»؟

«ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذي تكلم عنه السير إدوارد جراي معارك كمعركة دنشواي أثناء مسألة «طابة»، حيث كانت الأغلبية الكبرى من المصريين في جانب تركيا، مع أن الجنود الانجليزية كانت تمر دائماً في كل جهة بكل أمان واطمئنان»؟

«لقد أثبتت المرافعات في قضية دنشواي بكل إفاضة وبيان أنه لا دخل للإسلام فيها، وأن الضباط الانجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيداً»!

«إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقاً دقيقاً كاملاً في المسألة، وإن مصر على بعد يومين من أوروبا، فليأت إليها الانجليز المحبون للعدل، الراغبون في عدم ثلم الشرف البريطاني، وليذهبوا إلى المدائن والقرى، وليروا بأعينهم كيف

يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين كافة، وليقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصري ليس متعصباً أبداً ولكنه شعب كريم أبي، ينشد العدل والمساواة، ويطلب أن يعامل كشعب حر لا كقطيع من الأغنام وإنه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الأسمى، مطلب الحرية والاستقلال»!

«أجل، إن الشعب المصري شاعر الآن بكرامته، وذلك أمر لا يمكن إنكاره بأي حال، إنه يطلب معاملة أبنائه أسوة بالأجانب، وهو طلب عدل وغير مبالغ فيه أبداً!»

«لقد تكلم السير إدوارد جراي في موضوع حماية الأوروبيين ضد المصريين! ولكن هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين مصر؟ ألا يعيشون في أتم صفاء مع المصريين؟ ألا تحميهم الامتيازات الأجنبية؟ ولكن من يحمي المصريين؟! ألا ترى في بعض الأحيان مجرمين من الأجانب - يحتج النزلاء جميعاً على جرائمهم - يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية؟! وأي عقاب ستعاقب به الجنود الانجليزية التي قتلت الفلاح على مقربة من دنشواي، وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال»؟!

«إن اللورد كرومر دافع عن نفسه في تقريره الأخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التي يتصرف بها في أمور مصر قائلاً: إن البرلمان والرأي العام في انجلترا يراقبان أعماله كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضاً».

«ولكنها مراقبة باطلة، لأنه ما كاد البرلمان البريطاني

يعترض ويحتج على أعمال وحشية كهذه، حتى قال اللور
كرومر للسير إدوارد جراي: بأن التعصب مخيف على شواطى
نهر النيل، وأنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت! وبذلك ا
يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القواني
مخالفة للعدل والإنصاف!!»

«لذلك يقضي شرف الأمة الانجليزية بأن توازن بين الأقوا
الرسمية وأقوالنا، وتقوم بإجراء تحقيق دقيق ودراسة القضي
المطروحة أمامها الآن بكل استقلال!»

«لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكد بأ
الأمراء والكبراء في مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال
لأنه سلبهم سلطتهم، أما الفلاحون فإنهم يحبونه حباً جم
ويدعون بدوام العصر الحاضر!!»

«وبناء على ذلك فإنه لم يكن اعتداء فلاحي دنشواي عل
الضباط الانجليز إلا لأنهم رأوا إحدى نسائهم مجروحة
فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة، ويحو
للعالم كله أن يقابلهما بمزيد السخط! وإذا كان الأمر عل
العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعاً لعاطفة حقد ديني أو وطن
فيتحتم على اللورد كرومر أن يعترف بأنهم يمقتون الاحتلا
وأن إدارته أدت إلى إخفاق ليس له مثيل! ويحق عندئذ للمس
«ديلون» أن يقول مؤكداً: «إن خطبة السير أدوارد جراي هـ
أتعس شرح لمركز انجلترا وسياستها في مصر».

«على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصد
والحقيقة، يعترفون بأن حادثة دنشواي لم تكن مطلقاً نتيج

حركة عدائية ضد الأوروبيين، وأن المصريين هم أكثر أمم الأرض اعتدالاً وتسامحاً!»

«إن الخطة الوطنية التي يجري عليها أصحاب النفوذ والتأثير في الرأي العام المصري واضحة جلية، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم انهاض شعبنا وتعريفه وحقوقه وواجباته، وإرشاده إلى المقام اللائق به في العالم، وإننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية وإننا أول شعب شرقي صافح أوروبا، وإننا مستمرون على السير في الطريق الذي سلكناه وإننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقي ننال احترام العالم وحرية مصر، ومقصدنا الذي نرمي إليه هو استقلال وطننا، ومحال أن يوجد شيء ينسينا ذلك المقصد الأسمى!

«إن عطفنا على الشعوب الإسلامي لأمر طبيعي، ولا تعصب فيه، وإنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحد أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية في عصبة واحدة ضد أوروبا، والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون في إيجاد هاوية بين العالم الأوروبي والمسلمين!

«إنه لا سبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقي!

«وإن لمصر مكاناً خاصاً بها في الشرق، فهي التي وهبت العالم قناة السويس، وفتحت السودان للمدنية، وفيها طبقة راقية الفكر، وتقدم الأمة بالأمة يمشي فيها سراعاً، ومن المستحيل أن تحكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلاد بعيدة

مختبئة في أعماق إفريقية وليس بينها وبين أوروبا اتصال! ألم ير الناس الانجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجري في جهات الكونجو وغيرها من البلاد؟ فكيف يسمحون إذن بحدوث أفظع الجرائم في مصر»؟

«إنه من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر، فإن صوالحها فيها جسيمة والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها، وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى هياج الشعب المصري وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية».

«إننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية، نطلب دستوراً ينقذنا من السلطة المطلقة، ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل في انجلترا إلا أن يكونوا معنا ويطلبوا مثلنا ألا تكون مصر - تلك التي وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية - أرضاً تمرح الهمجية فيها، بل بلاداً تستطيع المدنية والعدالة أن يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة»!.

«مصطفى كامل»

[خطبة عن]:

«عمل محمد علي وواجبات المصريين نحو وطنهم»[٩٢]

سادتي وأبناء وطني الأعزاء.

إني إذا وقفت الليلة أمامكم لأذكركم بمجد مضى، وعظمة خلت، وأحيي معكم أكبر تذكار في حياة مصر والمصريين، فإني أعلم أنكم جئتم مرتاحين لسماع هذا الخطاب، وأنكم ترون مثلي أن خير احتفال يقام لأكبر عامل من عمال المجد المصري، هو المقارنة بين أيامه وأيامنا، وأعماله وأعمالنا، واستنباط عبر التاريخ النافعة، وعظاته البالغة، وتمثيل الوطن في مجده وعظمته، وإظهاره للعيون والأبصار على حقيقة الحالة الحاضرة، أسيفاً كئيباً حزيناً، مرتدياً ثياب الحداد، باكياً على أيام كان فيها حامل الشرف والفخار بين الممالك والأقطار، أي حال حال مصر في هذا اليوم بعد مرور مائة عام هجرية على الحادث الخطير، والأمر العظيم الكبير، على اجتماع الأمة واتفاقها حول رجل واحد، واختيارها له أميراً عليها، يدبر شؤونها، ويرفع شأوها، ويعلي مقامها، أي حال حالها، وأي موقف موقفها، وهي التي ملأت الدنيا دوياً،

---

(٩٢) ألقاها مصطفى كامل في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة مرور مائة عام هجري على تولي محمد علي باشا حكم مصر.. أي في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢م.

ونافست أقوى الممالك في جلالها، ثم انحدرت انحدار السيل من قمة ذلك الموقف العالي، حتى هوت إلى هاوية ذل وانحطاط، وصارت مثالاً للمسكنة والهوان؟!

صبراً أيها الوطن المحبوب على بلواك! فما ازدحم بنوك اليوم إلا لينشدوا أكبر العصور وأجل الأيام، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالمجد والعمل والوفاق والوئام، صبراً أيها الوطن العزيز صبراً! فقد ناجت الضمائر الضمائر، وتفاهمت النفوس والخواطر، وشعر كل مصري بأنه الوارث لأفضل الأوطان وأعز البلدان.

صبراً صبراً! فمن الذي يرى ذلك الظل الممدود، ظل مؤسس العائلة الحاكمة (محمد علي الكبير) ويبصر بعين بصيرته روحه الطاهرة ترفرف فوق الرؤوس، ويسمع صوته العالي يذكر المصريين بأقدس الواجبات نحو الوطن وأهله، وينظر بعين الحقيقة إلى يده القادرة العاملة، مشيرة إلى سبيل الفلاح والرقي، من ذا الذي يرى ويبصر ويسمع ذلك ولا يعتبر؟ من ذا الذي ينتسب بدمه أو بماله أو بعلمه إلى ذلك الرجل العظيم ولا تصغر نفسه في عينه إذا رآها نفس رجل دون الرجال؟

من ذا الذي يذكر منا مجد مصر في عهد ذلك الأمير ولا يذكر أنه مسؤول عن زواله، مطالب باسترداده؟

أسمع المعترضين يقولون: عجباً عجباً! يؤمل الخطيب أن تنال مصر في حاضر الأيام أو في مستقبلها ما نالت في غابرها، وتلبس من جديد ذلك الثوب الباهر الفاخر الذي حسدتها عليه الليالي والحوادث، وسلبته منها يد الغدر والانتقام؟

أجل أيها السادة! إن للمصري أن يؤمل لبلاده مجداً كمجدها الماضي، وعزاً وسؤدداً وجلالاً، كيف لا، وحياة (محمد علي) وأعماله كلها دروس ترشد المصريين إلى أن تاج المجد لا يوضع إلا على رأس العامل المجد، وأن رايات الفخار لا تنال إلا بالعمل والجهاد، وأن أمة فتحت البلاد والأمصار يوم كانت لا تتجاوز ثلث عددها اليوم قادرة على بلوغ غاية العز والرفاهية ونيل اسمى ما يرام من الحضارة والعمران.

كيف سار (محمد علي) بمصر، وكيف أنقذها من مهاوي الهلاك، وكيف أخرجها من عالم الظلمات إلى النور، وكيف فتح بها وضرب وغلب، وكيف ساد ولم يُسَد، وكيف ملأ من جنودها الديار، وأخضع لسلطانها البحار والأنهار، وكيف رفع ذكرها إلى أعلى منار، وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار، وكيف أبهج هذا الثغر بتزاحم الجواري في ثغوره، وعمم المعامل والمصانع في المدائن والقرى، ونشر المدارس والمكاتب في أنحاء البلاد، وأخرج من أبنائها نجوم علم يُهتدى بهم، ولا يُضَل بنورهم؟

كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظائم؟ كيف أباد المفسدين والظالمين، وجمع القطر تحت لواء واحد وكان ألف قطر في وطن واحد؟ هل استعان بغير المصري على تحقيق غاياته، أم استعار أمةً من حديد ورجالاً من صلب وأرواحاً شبت بين الموت والنار حتى أوتي ذلك الجلال، ونال من العظمة ما نال؟

كلا! لم يصل إلى ذروة المعالي وأقصى غايات الرجال إلا

بعقلك وبأسك أيها المصري العزيز، فسلاماً وألف مرة سلاماً على هذا العزم المقبور وهذه الهمة المدفونة، سلاماً على من نسي نفسه بعد أن أنسى العالم كل إنسان سواه.

سلمت الأمة المصرية أمرها لمحمد علي والبلاد ممزقة بين المماليك، يذيقونها أنواع العذاب والنكال، والشرع في أيديهم شرع الجور والاعتساف، والقانون في قبضتهم قانون الظلم والاستبداد، والبلاد منقسمة على نفسها. اسمها مصر وهي ألف قطعة وقطعة، لا جامعة بين أهلها ولا رابطة بين بنيها، ولا راحة ولا نعيم، ولا حرية ولا عمل!

تولاها الرجل العظيم وهي عليلة ضئيلة لا حراك بها، فقطع دابر المفسدين والأشرار، وأزال دولة المماليك كما يزول الغبار، وانقضت تلك السلطة المريعة التي قوضت أركان الدين والعقيدة، وهدمت بنيان الوطن والأمة، وما تركت فضيلة حتى جنت عليها، ولا رذيلة حتى مجدتها، انقضت وكأنها ظل زائل أو سحابة صيف لم تدم إلا قليلاً، انقضت والعالم بين مصدق ومكذب، يتساءل: كيف أتيح لرجل واحد أن يحول مجرى الليالي والأيام، ويغير تيار الحادثات العظام؟

مضت أيام المماليك ووقف (محمد علي) ناظراً إلى هذه الأمة ليرى أي أمر تقدر عليه، وأي عمل تستطيع، فرآها بعد عهد الشقاء، وزمن البلاء، وأيام المحن والفتن، قادرة على القيام بأعظم الأعمال، فيها من روح الحياة وقوة النهوض ما يزحزح الجبال الراسيات، وتخر أمامه الشم الثابتات، فجند من أهلها الجند، وأي جند جند؟ جند الغزاة الفاتحين، حملة النصر

والفخار، جند من المصريين. قوماً لا تراهم أمة حتى تسلم وتستسلم، جند من أعلوا مكانته، ورفعوا رايته، وجعلوا اسم مصر في كافة الأرجاء والآفاق عنواناً للمجد الرفيع والشرف الصحيح.

أخرج من أولئك الفلاحين. الذين طالما تصرفت فيهم الكوارث كما شاءت أبطالاً وشجعاناً اهتزت الأرض تحت أقدامهم إجلالاً وإعظاماً، وعجزت جيوش العالم عن مجاراتهم ومناظرتهم، بعث (محمد علي) من السكينة عزماً، ومن السكون همة وإقداماً، وسار جيشه من مكان إلى مكان حاملاً لواء الظفر والغلبة، فائزاً في كل بقعة بالنصر والفخر، فما هذه الروح العجيبة. التي نقلت بني مصر من حال إلى حال حتى صار الجريح يأبى أن يغيب عن ميادين القتال، والطفل ولوعاً بمناظر الحرب والنزال؟ ما هذا التغير الفجائي الذي اندهش لآثاره العالم طرّاً؟ وأي سر جعل الأمة المهضومة الحقوق، المسلوبة الإرادة، أمة فتح وغزو وفوز ونصر؟

السر في هذا الانقلاب وذلك التغير أن الرجل العظيم الذي تولى أمر مصر أدرك بواسع عقله أن في أمتها كنوزاً من الشهامة والذكاء مدفونة، فكشف عنها الغطاء وأظهرها للعالمين ساطعة بهية تخطف الأبصار، السر في ظهور المصريين على مرسح العالم بمظهر الفاتحين القادرين أن (محمد علي) لم يترك لليأس سلطاناً على نفسه، ولم يقف في طريقه لأول عائق حاول منعه عن العمل، بل اجتاز المصاعب والعقبات بعزيمة ماضية وثبات دونه الحديد قوة وبأساً.

اجتاز المصاعب، ولم يرضه أن تكون مصر قوية في البر ضعيفة في البحر، فوهبها أسطولاً ضخماً لم يمض على إنشائه وتكوينه أكثر من أربع سنوات، وهبها أسطولاً كان في الصف الأول من أساطيل العالم، تباهي به الاسكندرية ثغور الأرض، وهو يباهي بها وبوادي النيل الدنيا ومن عليها.

كان الغربيون إذا جاءوا مصر زائرين يقفون أمام هذا الأسطول حائرين مندهشين، بهرتهم عظمة مصر وارتقاؤها سلم المعالي في قليل من الأعوام.

ما عساي أقول اليوم عن جيش مصر وأسطولها، ولو نقلت إليكم كتابات المنشئين والمؤرخين، وآراء جماعات الكتاب عنها لخلتم هذا الوطن غير ذلك الوطن، ومصر غير مصر، ولظننتم أن حادثاً استثنائياً محا أمة عاداها الزمان فلم يترك لها إرادة ولم يلبسها غير لباس الوهن والاستسلام.

رددوا الطرف معاشر المصريين في صحف التاريخ، تروا أن مصر لم تكن ميداناً للجنود والبحارة الممثلين لرفعة قدرها ليس إلا، بل تبدو لكم مصر المحبوبة فوق ذلك في مصاف الأمم الصناعية ذات الشأن الأول، تبدو لكم المدائن والقرى مزدحمة بالصناع والعمال يحيون أطيب حياة، ويخدمون الأوطان أشرف خدمة، تبدو لكم بولاق، والخرنفش، وشبرا، وقليوب، وشبين، والمحلة الكبرى، وزفتي، وميت غمر، وفوة، ومنوف، وأبيار، والأشمونين، والمنصورة، ودمياط، ودمنهور، ورشيد، والاسكندرية، والروضة، والجيزة، وبني سويف، والمنيا، وأسيوط، وأبوتيج، وفرشوط، وملوى،

ومنفلوط، والفشن، وطهطا، وجرجا، وقنا، ميداناً للمعامل والمصانع والورش على اختلافها، وتبدو لكم بحليها وحللها زاهرة عامرة، تسعد مصر والمصريين، وتكفي البلاد حاجاتها، وتوفر لأهلها ثروتهم، ولا تعطي الأجنبي من خيراتها إلا بمقدار.

ارجعوا البصر كرة أخرى إلى مصر قبل عهد (محمد علي)، وقارنوا بين حالها في ذلك الحين وما صار إليه في عهده، تجدوا أرضاً بلقعاً تحولت إلى رياض وجنان، وفضاء واسعاً صار فيه الألوف والملايين يحرثون الأرض ويزرعون ويستثمرون، وشقاء تولى ونعيماً أقام، وفوضى زالت وأمناً استتب، وزراعات جديدة دخلت إلى البلاد فأحيتها وأنمت ثروتها وملأت نواحيها رغداً وسعداً.

ومن ذا الذي يستطيع أن يقف أمام هذه الأمة موقف المحقق المدقق وينكر على (محمد علي) فضله في إحياء أراضي القطر، ونقل زراعة القطن إليها، وأياديه البيضاء على كل من يعيش من الزراعة ويعكف عليها؟ من ذا الذي ينكر إصلاحاته العديدة في الري، والقناطر البديعة التي أقامها، والمصارف التي أنشأها، والمشروعات التي لا تزال قاعدة لكل إصلاح؟ من ذا الذي يحارب الحقيقة والتاريخ ليتجاهل أن مصر تجني اليوم من ثمرات أعمال (محمد علي) عشرات الملايين من الجنيهات، وأنه صاحب الفضل الأكبر على كل فرد من أهلها والنزلاء المستوطنين بها.

محال أن تخرج مصر واحداً من أبنائها يأبى على الحقيقة

والوطنية إعلان فضل (محمد علي) والاعتراف بأعماله الجسام، وأفعاله العظام، ومحال أن ينسى مصري تربى في عهد العلم والأدب إحسان هذا الأب الكبير والمحسن البار العظيم، وهو الذي تعلم القراءة والكتابة بعد الأربعين ليكون خير قدوة للمصريين، وهو الذي فتح المدارس والمكاتب، وملأ الديار نوراً وعرفاناً، وتولى تربية صغار الفلاحين فبهر العالم بفرط ذكائهم وعظيم استعدادهم للتعلم والانتقال من شأن إلى شأن.

دعوا المصانع والمزارع، واسألوا كل متعلم في مصر: ماذا كان يكون حالك لو لم يعلم (محمد علي) أباك من قبل؟ أما كنت تكون في ظلمات الجهالة، بعيداً عن مشارق النور والحياة والوجود؟

أجل، إن كل مصري شب وتعلم وتهذب، وعرف أن حياة الفكر والجد هي الحياة الصحيحة، وأدرك أن أسمى الهبات هبة العقل، وأن أجمل حلية لهذه الهبة الغالية تثقيفها بالعلوم والمعارف، مدين لمؤسس العائلة الخديوية بما هو فيه من نعمة ونعيم، وأنه لخليق بكل مصري نال العلم بفضل (محمد علي) أن ينتسب إليه بالروح والوجدان انتساب بنيه وذويه إليه، ويسلك السبيل الذي وجه الهمم والعزائم إليه، ليبلغ بالوطن والبلاد الشأن الأول والمقام المحمود.

أيها السادة: مهما بحث الباحث في حياة (محمد علي)، ومهما حكم على عصره، فإنه لا يستطيع إلا الاعتراف بأنه أحاط مصر بسور من القوة والرهبة، ورمى إلى إنشاء حكومة منتظمة فيها، تدير أمورها على قواعد راسخة وأصول ثابتة

وجمع شملها، فبعد أن كانت مفرقة موزعة على المماليك، يتصرف كل واحد منهم في الأموال والأرواح والأعراض كما يشاء وتشاء الأهواء، صارت وطناً واحداً لأمة واحدة، يجمعها لواء واحد، تحت سيادة أمير عظيم، لا يذكر اسمه إلا مقروناً بالاحترام والإعظام.

ومهما اختلف الناس في اعتبار نتائج أعمال (محمد علي)، فلا مراء في أنه وهب مصر عقلاً مدبراً، وقلباً شاعراً، وساعداً شديداً، ومجداً تليداً، وأنه وهب المصريين وطناً وأمة وحكومة ولساناً، وطبع على قلوبهم وأفئدتهم محبة الوطن والشهامة والإقدام، وحبب إليهم الفتح والنصر، ورفع الراية المصرية على كل صقع ومكان.

انظروا معاشر المصريين إلى سياسته في حكومته تجدوها قائمة على مبادىء ثلاثة، لا تدوم دولة بغيرها، ولا تحيا مملكة بغير إحيائها وهي:

أولاً: حماية الوطن من اعتداء الأجنبي وسلطته.

ثانياً: ترقية الجيش المصري إلى اسمى الوظائف، وترشيحه إلى استلام مقاليد الأمور، حتى لا تحتاج لأجنبي يزاحم بنيها، وتدريب المصريين على كل عمل وصناعة، حتى تحفظ الثروة الأهلية في البلاد، ويزداد الوطن عزاً ورغداً ونعيماً.

ثالثاً: الامتناع عن الدَّين واجتنابه كل الاجتناب.

بأي قلب أم بأي ضمير أم بأي لسان أحدثكم عن حماية

الوطن وصيانته ومنع اعتداء الأجنبي على ربوعه، وصده عن منازله، ومصر اليوم تمثل الاستسلام للانجليزي والرضوخ لسلطته، والامتثال لإرادته؛ وهي هي التي ردته عن الديار تحت إمارة (محمد علي)، وفي ظل رايته، وقالت له: مكانك أيها المهاجم! مكانك أيها الداخل! مكانك أيها المزاحم، إني أمة حية تأبى الضيم والهوان، ولا تدرك للحياة معنى بغير الحرية والاستقلال!

بأي قلب أم بأي ضمير أم بأي لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن، ودفاعهم عنه، ونضالهم عن حوزته أيام (محمد علي الكبير)، وقد حاولت انجلترا أن تقضي على هذا الملك الجديد، وهذه الدولة الناشئة، وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة، فأراها يومئذ بنو مصر أي أمة هم، وأراها (محمد علي) أي أمير هو! فتركت الثغور والبلاد، آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر، والعزم القاهر، والوطنية الحقة، والهمة الحديدية.

اعجبوا أيها المصريون لهذا الحادث الخطير، ولتصرفات الليالي، كيف أفرحت مصر وأبكتها في يوم واحد، أفرحتها في يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٠٧ حينما جلت الجنود الانجليزية عن ثغر الاسكندرية بعد احتلال دام ستة أشهر، وأبكتها في يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٨٢ حينما دخلت الجنود الانجليزية عاصمة الديار المصرية!.

كوفئت مصر في يوم أكبر مجد وأشرف فخار، وعوقبت في مثل ذلك اليوم بعد خمسة وسبعين عاماً باحتلال جر عليها

العار والشنار، كوفئت لأنها صانت الوطن والديار، وعوقبت لأنها سلمت البلاد، وانشقت على نفسها، ونسيت تاريخها، وتناست مطامع أعدائها، وامتلأت نفوس دعاة الثورة فيها بالأنانية والأغراض الذاتية والآمال الشخصية، فذهب الوطن فريسة، وقدمت الأمة على هيكل الدنايا ضحية، وتولى المجد القديم والعز التليد، وأقام الذل والهوان.

هذه عبرة العبر في التاريخ، وموعظة المواعظ، فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين في خير البلاد ورفعتها، واذكروها في كل وقت وآن، اذكروها، وتأملوا في تاريخ ذلك الرجل العظيم، تأملوا كيف ينتدب علماء الغرب وحكماءه وسادات أدبائه وفضلاءه ليعلموا المصريين العلوم والصناعات، حتى إذا صاروا من رجالها، وتحلوا بجمالها سلمهم مقاليد الأعمال، وكافأ المعلمين الغربيين على عملهم، وزودهم بالشكر والإحسان.

رأى محمد علي أن الذين - (بفتح الدال) - أساس الاستعباد، وأن أسمى المبادىء الجديرة بالاتباع مبدأ القائلين: «أدِن تَستَعْبِد واستَدِن تُستَعْبَد!». فلم يستدن لأنه خطب السيادة ولم يخطب الاستعباد، وطلب القوة ولم يطلب الضعف والمذلة.

حقاً إنها لآية الآيات، ومعجزة المعجزات، كيف يشيد (محمد علي) المدارس والمعامل، ويقيم الأبنية للجنود والعساكر، وينظم الري والفلاحة، ويشكل جيشاً بلغ عدد رجاله مائتين وثمانين ألف جندي (٢٨٠٠٠٠) وأسطولاً كان البحارة

فيه لا يقل عددهم عن ستة عشر ألف بحري (١٦٠٠٠) وكانت إيرادات مصر إذ ذاك لا تتجاوز مليونين ونصف مليون من الجنيهات، ثم لا يستدين عزيز مصر ولا يعرف الدين ولا الدين يعرفه!

ائتوني بعظماء الرجال، وكبراء الأمم، وفحول السياسة، واعرضوا عليهم هذا العمل المدهش، وهذه الآية الكبرى، وأنا كفيل بأنهم لا يصدقون به ولا يؤمنون بها، هل في طاقة رجل مهما بلغ من العظمة وقوة الإرادة أن يقوم بهذه العظائم، ولا يتعثر في ذيله بالديون الثقال؟ من هذا الرجل الذي تعدى حدود الطاقة البشرية حتى استطاع أن يخرج أمة من الجهالة والظلمات إلى العلم والنور، ويشيد فيها ملكاً قائماً على جيش عديد، وأسطول قوي رهيب، ومعامل ومصانع ومدارس، ثم لا يستمد بمال الغير، ولا يستعين على أعماله بغير قوة البلاد، وهي التي حملها الزمان من قبل ما يدك الجبال، ويفل الإرادة الماضية، ويودي بعزائم الرجال؟

ما هذا المجد الفخيم الذي يحدثنا عنه التاريخ؟! أين ذلك المصري الذي كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب بعيون الإعجاب والاعتبار؟ أين ذلك الذي إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول، ونال الشرف الأعلى، وعد وطنه في مقدمة الأوطان، ومصره في الصف الأول من مصاف الأمصار والبلدان.

أين عصر نقل عنه الناقلون أن الدول غدرت بمصر وحرقت أسطولها في ثغر (ناورين)، وأماتت من بحارتها

البواسل ستة آلاف رجل، وتقدم ضابط فرنساوي بالخبر إلى رجل الحروب وبطل المواقع إبراهيم باشا، فهز الأمير رأسه وقال: «وما أنشئت السفن والبواخر إلا لتكون فريسة النار أو البحار، فلست بآسف عليها، وإن أبيْ لقادر أن يجدد مثلها في عام أو بعض عام!».

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصري الحزين الأسيف؟ أين هو ليبعث في القلوب المستميتة شيئاً من الحياة والقوة، ويدل المصري على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته؟ أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال فيبلغ من نفوسكم ما لا يبلغه لسان المقال؟

أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة والدولة الفاخرة؟ كانت ـ وكأنها لم تكن ـ في دياجي الظلمات وغياهب الجهل، تعد، إذا ذكرت، في عداد الأموات. فقف أيها المصري فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث وانظر إلى أي حال صارت اليابان، وإلى أي حال صرنا، وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذي وجهنا إليه محمد علي الكبير. ليس الموقف موقف حزن يميت النفوس، بل موقف عظة واعتبار، وإن العبرة الكبرى في حياة (محمد علي) والدرس المفيد الذي يلقيه التاريخ على أبناء هذه الديار، إنهم لم يفقدوا العصبية والوحدة الملية، ولم يقفوا في طريق التقدم على حين استرسل غيرهم في السير إلى الإمام إلا لأنهم فقدوا الثقة بأنفسهم ونسوا ما قاموا به من جلائل الأعمال.

ثقة الأمة بنفسها هي الأساس الذي يبنى عليه مجدها ويشاد

عزها وسؤددها، ترى الأمة إذا اعتقدت الخير والقدرة في مجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام وقهرت ألد أعدائها واجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة.

هذه أمم الغرب، يترك الفرد من أبنائها بلاده، ويطوف الأرض من جانب إلى جانب، وهو في كل مكان ينزل به قويّ الجنان، شاعر بأنه الممثل لوطنه، الدال عليه، معتقد أنه رايته التي إذا أهينت أهين، وإذا مست بسوء قامت لأجلها بلاد وقعدت، وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور إلا لأن الأمة وثقت ببعضها، وارتبط كل فرد ببقية أفرادها، فصارت كتلة واحدة لا يعتدي عليها زمان ولا يجرؤ على المساس بها إنسان.

أما الأمة التي ظنت السوء بنفسها، وتركت هذا الظن الفاسد ميراثاً لأبنائها وحفدتها، فقل عليها السلام وادعها: أمة الموت والفناء.

لا يؤلم المصري المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة المصريين بأنفسهم، وتناقل هذه الأقوال المميتة للخواطر، القاتلة لكل حركة، واردة من الكبير إلى الصغير، وشيوعها حتى بين الأطفال الناشئين.

ما هذا السم القتال الذي تناولته الأمة عن طيب خاطر؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذي حل بها وتساقط على رؤوس أهلها وهم إليه ناظرون؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هي التي فتحت وقهرت، وضربت وانتصرت، وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها؟

لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية، ومحو آثار التاريخ المهذب للعقول والأرواح من المدارس والمكاتب، التاريخ التاريخ! هو المدرسة الجامعة لكل طبقات الأمة، والمعلم الذي يتأدب بأدبه الأمير الخطير، والوزير الشهير، والعالم الطالب، والفقير الصغير، من ذا الذي يقرأ تاريخ محمد علي ويرى على صفحاته آيات الشهامة والبسالة التي حلى بها المصريون أيامهم وأسماءهم وأوطانهم ولا يشعر بأنه ينتسب لأمة عالية، وإن أهانها الزمان أياماً فلسوف يرغم على احترامها وإكرامها ورد سؤددها إليها؟ من ذا الذي يسمع بتلك السفن الجارية، والجيوش الجرارة، والمعامل العديدة، والمدارس الجمة، والحياة العامة، والاستقلال المصان، ولا يرى نفسه من سلالة قوم فاتحين متمدنين جديرين بأن يخلد مجدهم، وتدوم أيامهم.

يقول الجاهلون: إن الزمان لم يترك من آثار محمد علي شيئاً مذكوراً، ولا يدرون أنه ترك شيئاً كبيراً، وترك بذور المجد والمدنية، ترك المواد الحيوية لإحياء الأمم وإعلاء قدرها، ترك العلوم والأنوار.

إن لم يكن إلا هذا الأثر - أثر العلوم والمعارف - فحسب العصر الماضي شرفاً وفخاراً لأنه ألقى إلينا السلاح الذي ما حارب الجهل والرذيلة حتى تغلب عليهما، ألقى مفتاح الرقي والتقدم، وآلة المجد والغلبة، وسلم السؤدد والمعالي، ونبراس الكمال، ألقى إلينا معدات الحياة، فإن استخدمناها كما استخدمها سدنا كما ساد، وسادت الديار، وإن أسأنا استعمالها

أسأنا، وقضينا على الحاضر والمستقبل شر قضاء.

قد ينسى بعض المصريين أن (محمد علي) تولى أمر البلاد باختيار أهلها وانتخابهم، وإن علماء مصر وأعيانها رفعوه إلى الإمارة في مثل هذا اليوم من مائة سنة هجرية مضت، وإن هذه رابطة أكيدة بين الأمة والعائلة الحاكمة لا يصح لأحد أن ينساها ولا يليق بمصري أن يتناساها، هذا إخاء بين الشعب والأمير لا تنفصم له عرى ولا ينحل له رباط.

إذا كانت مصر لم تذكر في بعض حوادثها الماضية وأيامها السالفة هذه الرابطة وهذا الإخاء، مما أودى بها وساقها إلى مهاوي الدمار والشقاء، فخليق بها أن تذكر الآن وفي كل آن هذا العهد المتين وتزداد بعرش الخديوية ارتباطاً وتعلقاً كلما مضت الأيام وتوالت الأعوام.

وكيف لا يذكر المصريون ذلك العهد ويبذلون الأرواح والأموال في سبيل تأييده وصيانته وهو هو الحامي لبقايا المجد والاستقلال.

في أي موقف يرى المصري بلاده الآن؟ في موقف البلاد المستعبدة التي تنظر من وقت إلى آخر تحقيق وعود دولة متمدنة عظمى، ولا تزف لها الأيام إلا مطلاً في الوعد وبلاء على بلاء!.

دخلت انجلترا هذه الديار مدعية إصلاحها، وتأييد عرش الخديوية المصرية فيها، ونشر ألوية الأمن والعدل في نواحيها، وإعداد المصريين إلى إدارة شؤون بلادهم بأنفسهم، ثم الجلاء

عنها وتركها لأهلها، فماذا عملت وأي طريق سلكت وإلى أي نتيجة وصلت؟

كان أول عمل للدولة الإنجليزية أنها قدمت الوعود والعهود للعالم كله بالجلاء عن مصر ولو بعد حين، وتركها لأهلها المصريين، فاعتقد صدق أقوالها الكثيرون من الشرقيين وقالوا: «محال أن يكذب القوم المتمدنون!» لأنهم لم يكونوا ليعلموا أن السياسة الغربية قائمة على مخالفة الوعود والنكث بالعهود، وأن المدنية البريطانية تطلب سيادة الأمم من مثل هذا الطريق، حتى صرح الساسة الإنجليز أنهم لم يقدموا هذه الوعود وتلك العهود إلا للسذج والبسطاء، وأنهم ينزهون العقلاء والحكماء عن التصديق بوعد في السياسة أو بعهد في تدبير امتلاك الأمم واغتيال حقوقها!، فعلم المصري يومئذٍ ما لم يكن يعلم، علم أن انكلترا احتلت بلاده لتقيده بقيود الذل والاستعباد، لا لتضع على رأسه تاج الحرية والاستقلال، علم أن وطنه صار مرمى السهام البريطانية، وأن حياته ومجده على خطر، وسمع صوت البلاد يناديه: الحذار! الحذار!

ولكن صوت الإنجليزي ارتفع ليدله على وسائل الرضوخ للمذلة والاستماتة، ارتفع ذلك الصوت، صوت العاملين على ابتلاع مصر، منادياً بأن المصريين لا يزالون أمة طفلة، محتاجة لمربٍّ حكيم، ومرشد عليم، فهل هم المربي وذلك المرشد؟

دل سلوك انجلترا في مصر، ويدل، على أنها لا تريد لعرش الخديوية قوة، ولا للبلاد خيراً، ولا للمصريين تقدماً

وارتقاء، ونحن لا نقول هذا القول جزافاً، بل نقدم عليه ألف برهان وبرهان، وما دام الإنجليز يفاخرون ويفتخرون بحرية القول والكتابة فإننا نناقشهم الحساب، ونسألهم أمام الملأ كله عن نتائج سياستهم بعد عشرين عاماً، نسألهم: أين الأمن الذي ادّعوا توطيد أركانه؟ هل ازدياد الجرائم والجنح والمخالفات، وتعدد السرقات، وكثرة اللصوص، واعتراف النائب العمومي بذلك كله، وتفنن الأشرار في إشعال النيران وحرق القرى والبلدان، مما تفاخر به إنجلترا، وتعده آية يحق لها أن تمن بها على مصر والمصريين؟! هل انتقال الوظائف من أيدي المصريين شيئاً فشيئاً، وخروج السلطة من قبضتهم، وإماتة كل نفوذ لهم، مما يرشحهم لاستلام مقاليد الأمور والسير بالبلاد إلى الأمام؟! هل محو كل روح وطنية في المعارف، وقلب مدارس الحكومة حتى صار عاليها سافلها، يؤهل المصريين للتقدم في ميادين الحضارة والعمران؟! هل إنشاء المحكمة المخصوصة، وتعالي المحتلين على المصريين، واعتداؤهم على القانون والعدالة والنظام العام، مما يؤيد المساواة في البلاد ويزيد القطر ارتقاء وإنتظاماً؟! هل رفع العلم البريطاني على عاصمة السودان، وإخراج العدد العديد من الضباط المصريين من الجيش بعد أن أبلوا ضد الدراويش[٩٣] أحسن بلاء، وقاموا بأعمال تخلد لهم المجد والفخر، مما يؤيد عرش الخديوية المصرية ويستوجب حمد المصريين؟! هل بقاء

(٩٣) أنصار الثورة المهدية السودانية التي قادها محمد أحمد (المهدي).

الحكومة بغير سلطة مراقبة عليها من الأمة، كما يشاء المحتلون، مما يجعل مصر في بحبوحة الراحة والأمن، ويوطد أركان الدستور فيها؟!

ذكرت الدستور، وطالما ذكره الذاكرون من أنصار الاحتلال ورجاله، فأين هو الدستور؟ أين ذلك الدستور الذي يلجم الحكومة بلجام من حديد، ويهب الأمة حرية الرأي والفكر، وحق المراقبة على أعمال الحكام، وسن القوانين والشرائع، ومناقشة الوزارة عن الصغائر والكبائر؟ أين ذلك الدستور، ونحن لا نرى إلا مستشارين من الإنجليز يحركون الحكومة يميناً ويساراً، ويتلقون الأوامر من رجل واحد، ولا يحاسبون أمام أحد من أبناء هذه الأمة؟ هل معنى الدستور سقوط السلطة المصرية وقيام السلطة البريطانية مقامها؟!

كلا ثم كلا إنما الدستور هو منح الأمة حق الإشراف على كافة الأعمال ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضرها، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة، وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت في خدمة البلاد. الدستور هو ألا يستطيع أحد، مهما كان عظيماً، وطنياً أو أجنبياً، أن يمس القوانين والنظامات بشيء، فهل يوجد رجل واحد في هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور، وأن المحتلين لو شاءوا تغيير أي نظام موجود أو خرق سياج أي قانون لا يستطيعون؟

لعمري إن ما يسميه المحتلون وأنصارهم بالدستور لهو الفوضى في لباس النظام، والاختلال في قالب الاحتلال، وإلا

فأين الضمانة التي تطمئن لها القلوب والخواطر؟ أين ذلك المجلس الذي وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دفرين[٩٤]؟ أين هو لتعتقد الأمة المصرية أن الدولة البريطانية لم تحتل بلادها إلا لتسعد حالها، وتعلي شأنها، وتوقف المصري على مكانته، وتعرفه أنه إنسان له حقوق الإنسان؟!

يظهر بعض الإنجليز اندهاشاً من قيامنا ضدهم، ولست أدري كيف أكيف هذا الاندهاش؟ كيف أكيفه وهم أبناء أمة متمدنة، تعرف معنى الوطن والوطنية، وتدرك أن الحرية هي أسمى نعيم، وأن صيانة البلاد من اعتداء الأجنبي أقدس فرض على أهلها، كيف أكيفه وقد قال اللورد دفرين: «إنه يحق للمصريين أن يبغضونا من عميق قلوبهم إذا أقمنا طويلاً ببلادهم، مهما أسعدناهم وأسبغنا عليهم من النعم، لأن الاستقلال لا ثمن له!».

نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور، أي بالنظام الذي تتمتع به الأمم المتمدنة، ونحن نرى من موت الشعور وفقدان الوجدان السكوت عن حقوقنا الشرعية التي يعترف بها كل إنسان، ونعتقد أن الإنجليز أنفسهم يحتقرون كل مصري لا يرى هذا الرأي ولا يجاهر به، لأنهم إن أحبوا أن يخون الرجل وطنه لأجلهم، لا يحبون الخائنين، وإن كرهوا القائمين

---

(٩٤) المعتمد البريطاني بعد الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م.

في وجوههم المدافعين عن بلادهم لا يستطيعون إلا تعظيم الوطنية ورجالها أنى كانت وأنى كانوا!

أيها السادة: أصبحنا بعد مائة عام، قضينا جانباً منها في الجد والعمل، وغرس بذور المدنية، وفتح أبواب مصر والسودان للعالم المتمدن، في آخر مصاف الأمم، تمتاز عنا الصرب والبلغار وشعوب صغيرة، لم تكن في الحسبان، بالحرية والاستقلال والاحترام العام، فمن البلية والشقاء والموت الأدبي أن نقف متفرجين على حركة العالم ونترك الأمم الأخرى ترتقي منصة السمو والجلال!

هذه حياة (محمد علي).. لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد في الحال والاستقبال، لنا أن نضربها مثلاً للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بمكان، وأنها تكون كذلك لو طرقوا أبواب الاتحاد والوئام، وسلكوا مسالك العزم والإقدام.

لا تقوم مدنية مصر في مستقبل الأيام، ولا يدوم لها شأن إلا إذا شيدت على الأمة وبالأمة، وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم وكل فرد من أفرادها أن للإنسان حقوقاً مقدسة لا يصح المساس بها، وأنه لم يخلق ليكون آلة، بل ليعيش عيشة الأحياء، وأن حب الوطن هو أسمى شعور تتحلى به نفس بشرية، وأن أمة ضاع استقلالها لا مقام لها ولا شأن لأبنائها.

الوطنية، أيها السادة: هي العماد لكل مملكة والأساس

المتين لكل دولة، الوطنية: هي الروح العاملة في كل بلاد العالم المتمدن، الوطنية: هي أم المعجزات، وأصل كل تقدم وارتقاء، الوطنية: هي التي تنقل الشعب الجبلي إلى الحضارة والعمران والاقتدار وسمو القدر في قليل من الأعوام، الوطنية: هي الدم في عروق الأمم والحياة لكل ذي حياة.

الوطنية: هي الغذاء الذي يحتاج إليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء، فقدموها للأبناء في غدواتهم وروحاتهم وحركاتهم وسكناتهم، وأطبعوها على قلوبهم!.

أيها السادة: إن الرجل العظيم الذي غير أحوال مصر، وكساها حلة من المجد والفخار. وفق عمله بين مبادىء المدنية العصرية ومبادى الدين الإسلامي الكريم، لأنه رأى أن في الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان، وأنه الدين الذي يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الحياة وأتم نعيمها، فإذا اقتدينا به واعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها، واعتبرنا بعبر التاريخ، وتركنا النزاع الذي أضر بمصر والإسلام، واجتنبنا كل افتراق وشقاق، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع.

وإننا لا نبغي في هذا الطريق، الذي يدعونا لسلوكه كل محب لمصر، معاداة أحد من النزلاء، أو الخروج عن خلة إكرام الغريب التي اشتهرنا بها، بل إننا نشكر كل أجنبي يساعدنا على خدمة الأوطان كما شكر آباؤنا من قبل وكما شكر تاريخ

مصر سليمان باشا، وفارين، وسجرا، وكلوت بك، ودي سيريزي، ويسون بك، وجومار، وجومل[٩٥]، إلا أننا نطلب الاحترام المتبادل، والاشتراك في المنفعة، اشتراك إخاء، لا اشتراك شحناء وبغضاء. وإنه يسرني أن أعلن شكر الأمة المصرية كلها لأولئك الكرماء من النزلاء الذين شاركوها في مصابها بالحرائق الأخيرة والنوازل المؤلمة، فجادوا بالأموال عن كرم وسخاء، وخففوا بها وبصادق العواطف الآلام عن المنكوبين[٩٦].

يحلو لي أيها السادة أن أختم خطابي بكلمة قالها نابليون يوم دخل مصر، قال ذلك الرجل الكبير: «لا تكون الأسماء العظيمة إلا في الشرق!»، فالشرق كان ولا يزال ميداناً واسعاً للمجهودات الكبيرة والهمم العالية، لا يزال الشرق مهداً لعظماء الرجال وكبراء الشعوب، وإذا كان قد حرمهم حيناً من الدهر طويلاً فما علة ذلك الحرمان إلا اليأس والقنوط.

فانزعوا اليأس من قلوبكم معاشر المصريين، وطهروها من القنوط وسوء الظن بالله وقدرته، وابنوا مجدكم المقبل على التربية الوطنية السليمة الصحيحة، وضموا صفوفكم واجمعوا أمركم ليخرج من بينكم رجال عظماء يبدلون ليل الأوطان بالنهار ويردون لها ما فقدت من استقلال ومجد وفخار!.

---

(٩٥) خبراء فرنسيون وأوروبيون عملوا في الإدارة المصرية والجيش المصري على عهد محمد علي.

(٩٦) يشير مصطفى كامل إلى حريق مدينة «ميت غمر» الشهير في ذلك التاريخ.

مراجع

- الأفغاني (جمال الدين): [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني]. . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
- بروكلمان (كارل): [تاريخ الشعوب الإسلامية]. ترجمة: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي. طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م.
- الرافعي (عبد الرحمن): [مصطفى كامل، باعث الحركة الوطنية]. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م.
- لوتسكي: [تاريخ الأقطار العربية الحديثة]. طبعة موسكو سنة ١٩٧١م.
- لوثروب ستودارد: [حاضر العالم الإسلامي]. . ترجمة: عجاج نويهض. طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.
- محمد عبده (الإمام): : [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.
- محمد فريد: [تاريخ الدولة العلية العثمانية]. الطبعة الأولى.
- مصطفى كامل: [صحيفة «اللواء»]. [صحيفة «المؤيد»].

فهرس

مطابع الشروق

بيروت: مار الياس - شارع سيدة صيدنايا - بناية صمدي
ص.ب: ٨٠٦٤ - برقيا: داشروق - تلكس: ٢٠١٧٥ LE
هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥
٨٦٧٥٥٥ - ٣٠٧٩٨٤

